كوكتيل

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

الأمير

وقصص أخرى

Looloo
www.dvd4arab.com

39

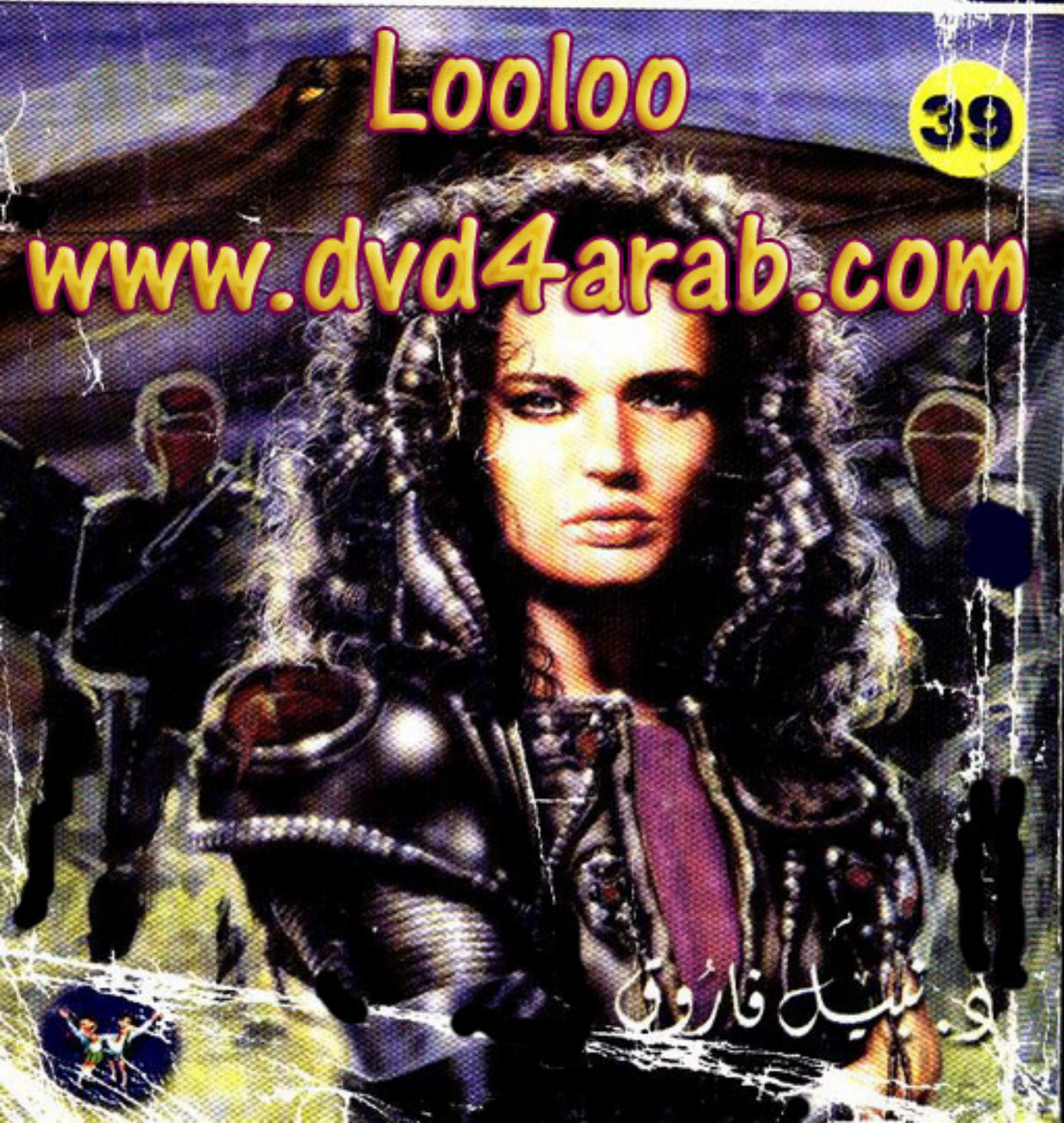

د. نبيل فاروق

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

نافذة على القلب

(خواطر)

عشرون عامًا مضت ..

هل يمكنكم أن تتصوّروا هذا ؟!

عقدان من الزمان مضيا ، منذ بدأت علاقتى بعالم (روايات مصرية للجيب) ، فى أواخر النصف الأول ، من ثمانينيات القرن العشرين !!

كنت أيامها طبيبًا شابًا ، أنهى فترة التكليف الإجبارية بالكاد ، وراح يسعى لشق طريقه فى الحياة ، ككل أبناء جيله ..

ثم قرأت إعلانًا فى الغلاف الأخير ، لواحدة من المجلات الثقافية ، التى لم تتغيَّر كثيرًا ، طوال كل تلك الفترة ..

والعجيب أننى لم أبتع فى حياتى كلها ، سوى ذلك العدد ، من تلك المجلة الثقافية الجافة ..

بل ، ولم أدر حتى ، لماذا وجدت نفسى مدفوعًا أيامها لشرائها ، على الرغم من مرورى ـ آنذاك ـ بأزمة مالية طاحنة ، كانت تجبرنى على التأنى والتروّى دومًا ، فى انتقاء ما أدفع بعض القروش الزهيدة لامتلاكه ..

إنه القدر حتمًا ..

القدر ، الذى كان يدفعنى دفعًا أيامها ، نحو طريق حلمت به منذ طفولتى ، وإن لم أتصوَّر قط أنه يمكن أن يشق طريقًا واقعيًا يومًا ، فى مسار حياتى ، أو يجذبنى عبره ، ليتغيَّر مسار مستقبلى كله ..

وإلى الأبد ..

وعبر قصة طريفة ، أوردتها فى نهاية مذكراتى ، عن فترة التكليف ، فى صعيد (مصر) الجوّانى ، وجدت نفسى أتخلَّى عن عالم الطب ، واندفع بكل لهفتى ، وحماسى ، وعقلى ، وقلبى ، وقلمى أيضًا ، نحو عالم جديد ..

ومثير ..

وعظيم ..

عالم انغمست فيه بكل جوارحى ، وغرقت فيه بكل مشاعرى ، وانتشيت به ومعه ، حتى آخر قطرة فى كيانى ، وعبر كل ذرة فى وجدانى ..

ولأننى أختزن داخلى أطنان من الأفكار ، منذ وعت عيناى الدنيا ، رحت أفرغ كل هذا على بحر من الأوراق ، وقضيت عمرًا كاملاً أعمل ، وأفكّر ، وأقرأ ، وأكتب ..

كل يوم من الأعوام العشرين الماضية كنت أكتب ..

وأكتب ..

وأكتب ..

ولم أتوقف عن الكتابة يومًا واحدًا

مهما كانت الظروف ..

ومهما بلغت المصاعب ..

والمتاعب ..

والتعقيدات ..

حتى عندما احتوانى فراش المرض ..

وحتى وأنا أجلس فى المستشفى ، إلى جوار والدى المريض ..

وحتى يوم وفاته ..

لم تكن الكتابة بالنسبة لى أبدًا مجرَّد عمل ..

بل كانت حياة ..

حياة كاملة أفرغ فيها ، ومعها ، وبها كل مشاعرى ..

وانفعالاتى ..

وأحزانى ..

وأتراحى ..

وأفراحى ..

وحتى فلسفتى ، وأفكارى ، واهتماماتى السياسية والاجتماعية ..

وعبر الورق ، صنعت معكم أعظم صداقة فى الوجود ..

صداقة الورق .

صداقة صنعت بيننا جسرًا من المودة ، والثقة ، والحب ، والبساطة ، والشفافية المطلقة ..

وكم أحببت هذه الصداقة ..

واحترمتها ..

وتمسكت بها ..

حتى عندما بدأت أشعر بالإرهاق والإجهاد ، منذ بضع سنوات مضت ، كنت أصر على المواصلة ، وعلى عدم ترك قلمى يومًا واحدًا ..

من أجلكم ..

كانت هناك عشرات العقبات ..

والصعوبات ..

والصراعات ..

والخلافات ..

خلافات تسعى لإثبات ما هو مثبت ، ولتأكيد ما اتفقت الدنيا كلها على تأكيده ، وتحديده ..

وتقتينه أيضًا ..

وكان كل هذا يرهقنى ، ويجهدنى أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ولأننى أمتلك عقلية علمية ، تميل إلى التعامل مع العقل والمنطق ، لم يمكننى أبدًا استيعاب الكثير من الأمور ..

أو فهمها ..

أو حتى تقبلها ..

وفى الوقت ذاته ، كنت وما زلت أصر على التمسك بمجموعة من المبادئ والقيم ، زرعها والدى فى أعماقنا منذ مولدنا ، وقضت والدتى عمرها كله ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ، لتأكيدها وتثبيتها فى كل خلية من أجسادنا ، وللتيقُن من أننا نحافظ عليها ونتبعها ، فى كل خطوة نخطوها ، مؤكدة أن الله (سبحانه وتعالى) يرعانا ، ويسدد خطانا ، ما دمنا نتخذها سبيلاً لحياتنا ، وضوءًا ينير دروبنا ، ويحكم قراراتنا وأهدافنا ..

ولكننى ، فى النهاية ، ومهما قاتلت وصمدت ، مجرد بشر ..

لذا ، فقد انتبهت فجأة ، إلى أن الإرهاق قد بلغ منى مبلغه ، والإجهاد وصل إلى ذروته ، وأن جسدى لا يمتلك الحماس نفسه الذى تمتلكه روحى ، إذ أنه قد تمرَّد أخيرًا على ما أجشّمه إياه ، وأعلن رفضه مواصلة القتال ، ما لم أمنحه إجازة ؛ لتجديد نشاطه ، واستعادة حيويته ، وتآزر معه عقلى المجهد ، مطالبًا بمرحلة التقاط أنفاس ، وإعادة شحن بالجديد من الأفكار ، والمعلومات ، والمعارف المطلوبة ، لبث وقود الإبداع فى خلايا المخ الرمادية ..

وكان من الضرورى أن أستجيب هذه المرة ، بعد رحلة اقتربت من العشرين عامًا ، بالتمام والكمال ..

وأنا أحصل على إجازة ..

وأعلم مسبقًا أن هذا لن يرضى الكثيرين ، بل وسيثير حتمًا غضب العديدين ، وربما يخلق أيضًا دائرة جديدة من الصراع ..

ولكننى ، فى هذه المرة ، لن أخوض الصراع ..

أى صراع ..

فالإجازة ضرورة حتمية ، لكل مخلوق فى الدنيا ..

حتى أيام الحرب العالمية الثانية ، وفى ذروة أحداثها الملتهبة والمشتعلة ، كان الزعيم النازى (أدولف هتلر) ، ورئيس الوزراء

البريطانى (وينستون تشرشل) يحصلان على إجازتيهما بانتظام ، لتجديد نشاطهما ، وتنقية عقليهما ، وضمان قدرتهما على اتخاذ القرارات الحاسمة ، دون ضغوط عصبية أو جسدية ..

وعندما احتدمت الأمور ، وتصاعدت الأحداث ، وتضاعفت الصعوبات ، قرَّر (هتلر) التخلى عن إجازته ، ومضاعفة جهوده ، من أجل المعركة ..

أما (تشرشل) فلم يتخل عن إجازته أبدًا ..

وهنا ، وفى قمة الصراع ، قرَّر المراقبون الدوليون أن (ألمانيا) ستخسر الحرب حتمًا ..

ليس لأن الحلفاء يقاتلون بكل قوتهم ..

أو لأنهم متفوقون فى العدد والعدة والعتاد ..

ولكن لأن (هتلر) قد ألغى إجازته ..

وكانوا على حق تمامًا فيما توقعوه ..

قرارات (هتلر) أصبحت مغموسة فى الإرهاق والإجهاد ..

أصبحت عصبية ..

حمقاء ..

متهوِّرة ..

وخاطئة ..

وخسر النازيون الحرب ..

خسروها لأن (هتلر) لم يحصل على إجازة ، عندما شعر جسده وعقله وقلبه بهذا ..

ولأننى اعتدت أن أتعلَّم من التاريخ ..

ولأن كل من حولى كانوا يحصلون دومًا على إجازاتهم ، ويحرصون عليها ، ويخططون للاستمتاع خلالها ، كان لابد أن أتخذ القرار أخيرًا ..

وبعد عشرين عامًا ..

قرار الإجازة ..

وأنا أبلغكم بالقرار الآن ، قبل أن يعلم به أى مخلوق آخر ..

أبلغكم به على الورق ..

يا أصدقاء الورق ..

أبلغكم به ، عبر نافذة خاصة ، ربطت بينى وبينكم دومًا ..

نافذة على القلب ..

وعلى العقل ..

معًا ؟

* * *

د. نبيل فاروق

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
الانفجار الغامض
(دراسة)

١ ـ سيبيريا ..

● على الرغم من سطوع الشمس ، على غير العادة ، فى تلك البقعة من أصقاع (سيبيريا) الرهيبة ، فى الثلاثين من يونيو ، عام ١٩٠٨م ، إلا أن درجات البرودة ظلت منخفضة إلى حد تجاوز الصفر ، إلى عشرين درجة سالبة على الأقل ، وإن لم يمنع هذا حيوانات الرنة من الخروج فى رشاقة ؛ سعيًا وراء رزقها ، ولا المزارعين من ترك فراشهم الدافئ ، ودفع ماشيتهم إلى الحقول ، التى غطت الثلوج معظمها ، وتركها ترعى طيلة النهار كالمعتاد ..

ومع ما يمثله كل هذا من صعوبات جمة ، بدا الجميع هادئين متآلفين مع ما حولهم ، باعتبارها بيئتهم الأصلية ، التى نشئوا وترعرعوا فيها ، و ...

وفجأة ، تغيّرت كل الأمور ..

وبعنف ..

ففى الخامسة تقريبًا ، ومع اختفاء آخر ضوء للشمس ، التى لم تسمح لها الغيوم الكثيفة بالسطوع طويلاً ، بدأت حيوانات الرنة تغادر الحقول ، وراح المزارعون يجمعون ماشيتهم كالمعتاد ..

وفى تمام الخامسة ، وسبع عشرة دقيقة بالضبط ، دوى الانفجار ..

انفجار هائل رهيب ، ارتجّت له منطقة نهر (تانجسكا) كلها بمنتهى العنف ، حتى اختل توازن المزارعين ، وأصيبت ماشيتهم بالذعر ، وراحت حيوانات الرنة تعدو فى كل مكان بلانظام ..

ومع الانفجار ، ارتفعت كتلة هائلة من اللهب ..

كتلة أقسم كل من شاهدها ، من مزارعى المنطقة ، وسكان المناطق المجاورة والمتاخمة ، أنها أضخم وأغرب من أى شىء رأوه ، فى حياتهم كلها .

وخُيّل للكل أن الشمس قد سقطت على الأرض ، على حد قولهم ؛ لأن السماء كلها أضاءت بوهج رهيب ..

وهج لم يحيل مساء (تانجسكا) إلى نهار فحسب ، وإنما امتد إلى ما هو أبعد من هذا ..

أبعد بكثير ..

فكل سكان (روسيا) بلا استثناء رأوا الضوء ، بل وأمكنهم السير فى قلب الليل ، دون الحاجة إلى أية مصابيح ، حتى شروق شمس اليوم التالى ..

وفى (استوكهولم) ، أمكنهم التقاط عددًا من الصور الضوئية ، بكاميراتهم محدودة الإمكانيات ، فى قلب الليل ، دون الحاجة إلى وميض مصابيح التصوير ..

الصحف الإنجليزية أكّدت أن قراءها كان بإمكانهم قراءة الأحرف الصغيرة ، من جريدة (التايمز) ، فى منتصف الليل ..

الألمان حظوا بنهار ، دام أكثر من أربع وعشرين ساعة ..

الهولنديون عجزوا عن رصد النجوم ، بسبب الضوء المبهر ..

كل هذا أكّده الشهود ، وسجلته الصحف والوثائق ..

والكتب أيضًا ..

وبالذات فى (روسيا) ، التى أكّد أحد مزراعيها ، والذى كان يجلس على بعد ستين كيلومترًا من موقع الانفجار ، أنه شعر بلفح النيران ، ورأى كرة هائلة من اللهب ، ترتفع إلى السماء ، قبل أن يلقيه الانفجار بعيدًا ..

ليس هذا فحسب ، وإنما أطاح بسقف منزله أيضًا ، إلى مسافة مائة متر كاملة ..

ولأن الحدث رهيب ، ومفاجئ ، وشبه عالمى ، فقد سرى الرعب فى نصف الكرة الأرضية على الأقل ، قبل أن تمتد الأخبار إلى العالم كله فيما بعد ..

ومع انتشار الأخبار ، بدأت التساؤلات ..

ما هذا الانفجار الرهيب ؟!

كيف حدث ؟!

وكيف اكتسب كل هذه القوة ، التى لم يعرفها العالم قبلها قط ، فى زمن ما قبل القنابل الذرية ، والنووية ، والهيدروجينية ؟!

ولأن الناس أعداء ما يجهلون ، وخصوم ما يخشون ، ويميلون دومًا إلى الفزع والخوف والتشاؤم ، فقد خرجت بعض الآراء فى سرعة ، تعلن أن هذا الانفجار مجرّد إنذار من السماء ، والخطوة الأولى فى طريق فناء العالم .

ومن هول ما رآه الناس وشعروا به ، انتشرت تلك الفكرة فى سرعة ، وامتدّت إلى كل بقاع الأرض ..

فيما عدا (روسيا) أيضًا ..

ففى تلك الفترة ، وعلى الرغم من الظاهرة الغريبة والمفزعة ، لم يحرّك مخلوق واحد ، فى (روسيا) القيصرية ـ آنذاك ـ إصبعًا ، للبحث عن سبب حدوث هذا الانفجار العجيب .. والغامض ، لأن الاضطرابات السياسية كانت قد بلغت مدى ، انشغل به الكل عن سواه ، وانشغلوا أكثر بذلك الراهب الرهيب (راسبوتين) ، الذى سيطر فى ذلك الحين على القيصر والقيصرة ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى فى القصر ، والمتسبّب الأوّل فى أوجاع الشعب ومتاعبه ..

ومع انشغال الكل بالسياسة ومتاعبها ، تجاهلت كل الجهات الرسمية الروسية ما حدث ، وتعاملت معه باعتباره مجرّد ظاهرة غير مفهومة ، لا تستحق البحث عنها ، أو حتى معرفة أسبابها ..

كل ما حدث ، وبصفة غير رسمية ، هو أن فريقًا من العلماء قد كوّن بعثة استكشافية ، على نفقة أفراده ، وذهبوا إلى موقع الانفجار

عند نهر (تانجسكا) ، فى أعماق صقيع (سيبيريا) ، وتفقّدوا المكان ، وسجلوا ما رأوه ، حتى أصابتهم بعض الأمراض العنيفة ، التى تسبَّبت فى موت اثنين منهم بسبب الجفاف ، وسط ثلوج تحيط بهم من كل جانب ، وإصابة الآخرين بنوع عجيب من القروح ، فشلت كل محاولات علاجها ، بعد عودتهم إلى (موسكو) ، مما أدى إلى تفاقم الحالة ، ووفاة الباقين خلال شهرين من عودتهم ، دون أن يُشخّص طبيب واحد طبيعة مرضهم ، والذى لم تسجله أية مراجع طبية علمية من قبل ..

ومع تجاهل السوفيت للأمر ، راحت قصة انفجار (سيبيريا) تهدأ ، وتهدأ ، حتى تلاشت تمامًا ، وضاعت فى خضم الأحداث ، واندلاع الحرب العالمية الأولى ، التى أكّد العديدون تورّط الراهب (راسبوتين) فيها ، مما دفع مجموعة من النبلاء إلى التخلُّص منه وقتله ، قبل عام واحد من قيام الثورة البلشيفية ١٩١٧م ، والتى كانت النتيجة الحتمية للاضطرابات السياسية ، التى لم يتمكّن القصر من السيطرة عليها أبدًا ..

ومع بدايات الثورة البلشيفية ، تغيَّرت أمور كثيرة فى (روسيا) الجديدة ، ليس هذا مجال شرحها ، ولكن كل ما يهمنا منها هو ما حدث بعد قيامها بأربع سنوات تقريبًا ..

وبالتحديد فى عام ١٩٢١م ..

ففى ذلك الحين ، بدأ أوّل بحث علمى وفعلى وجاد ، عما أطلق عليه الكل اسم (انفجار سيبيريا) ، على يد العالم السوفيتى الشاب (ليونيد كوليك) ..

والواقع أن (كوليك) كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنوات ، بفارغ الصبر ، وبالتحديد منذ قرأ صحيفة محلية قديمة ، تصف ذلك الانفجار الكبير بقولها :

ـ «شاهد الفلاحون جسمًا شديد الإضاءة يهبط من السماء ، فى الشمال الغربى ، بميل واضح ، وبدا لهم أشبه بجسم أسطوانى منتظم ، وعندما بلغ ذلك الجسم الأسطوانى سطح الأرض ، انسحق تمامًا ، وتكوّنت حوله سحابة هائلة من الدخان الأسود ، استمرّت لثوان ، قبل أن يدوى صوت انفجار هائل رهيب ، أشبه بانطلاق ألف ألف مدفع جبار ، واهتزّت القرية كلها ، وتصوّر الجميع أنها نهاية العالم » ..

هذا بالضبط ما نشرته الصحيفة القديمة ، التى أثارت انتباه (كوليك) ، وخلبت لبه ، ودفعته إلى السعى لكشف ما حدث هناك ..

فى أعماق (سيبيريا) ..

والوصف ، الذى ورد فى الصحيفة القديمة ، تم نقله عن شاهد عيان ، لم يبال به أحد أيامها ، ولكنه بدا ، بالنسبة للعالم الشاب (كوليك) ، كطرف خيط قوى ، يمكن يقود إلى تفسير انفجار (سيبيريا) الغامض ..

ولكن رغبة (ليونيد كوليك) ، كانت ترتطم بالعقبة التقليدية ، فى كل الأبحاث العلمية عبر التاريخ ..

التمويل ..

فالسفر إلى منطقة نهر (تانجسكا) ، فى أعمق أعماق (سيبيريا) ، وإجراء الفحوص اللازمة ، والدراسات الكافية ، والبحث عن تفسير علمى أو منطقى لانفجار غامض ، حدث منذ عدة سنوات ، كان يحتاج حتمًا إلى تمويل ضخم ..

لذا فقد بدأ (كوليك) الجزء الأوَّل من رحلته ، داخل (موسكو) نفسها ، فى ظل نظام شيوعى متعسِّف ، يولى اهتمامًا كبيرًا للأموال ، ويضع أولويات للإنفاق العسكرى ، والاجتماعى ..

وطالت رحلة (كوليك) ، وهو ينتقل من جهة إلى أخرى ، ويرتطم بالرفض ، والإنكار ، والاستنكار ، حتى أصابه اليأس أو كاد ، وقرَّر التخلى عن الفكرة كلها ، وقلبه يقطر دمًا ..

وذات ليلة شديدة البرودة ، من ليالى يناير عام ١٩٢٧م ، عاد (كوليك) إلى منزله يائسًا بائسًا ، و ...

وكانت فى انتظاره مفاجأة هناك .

مفاجأة مدهشة ..

* * *

٢ ـ أوَّل رحلة ..

● لم تبلغ برودة الطقس ، منذ بدايات القرن العشرين ، ما بلغته فى تلك الليلة ، من ليالى يناير ١٩٢٧م ، والعالم الشاب (ليونيد كوليك) يعود إلى منزله بائسًا يائسًا ، و ....

« أأنت (ليونيد كوليك) ؟! »

صدمه السؤال ، الذى انبعث من بقعة مظلمة ، فى مدخل المنزل ، فى مرحلة تميَّزت بالاعتقالات الليلية ، واغتيال الخصوم والمعارضين ، أو نفيهم إلى معتقلات (سيبيريا) ؛ لتتجمَّد مشاعرهم وأفكارهم هناك ، وسط ثلوجها الرهيبة ، التى تمتدّ إلى مدى البصر ، فى كل الاتجاهات ..

وبصوت مرتجف ، وأعصاب جمَّدتها المفاجأة ، أجابه (كوليك) :

ـ نعم .. هو أنا .. من يريدنى ؟!

برز من قلب الظلمة رجل قصير ، صارم الملامح ، مد يده إليه ، مجيبًا بنفس الغلظة غير المبرَّرة ، التى ألقى بها سؤاله الأوَّل :

ـ (فيدور كواليسكى) .. من اكاديمية العلوم السوفيتية .

صافحه (كوليك) بأصابع مرتجفة ، وقلبه يخفق فى عنف ، فأضاف الرجل بنفس الغلظة ، وهو يسحب يده فى برود :

ـ لقد وافقنا على تمويل حملتك ، ونريدك أن تبدأ فى أقرب فرصة ..

وطار قلب (كوليك) ، من شدة الفرح ..

لم يكن يدرى أيامها أن سبب موافقة أكاديمية العلوم ، على تمويل رحلته ، لم يكن علميًا بالدرجة الأولى ..

بل كان عسكريًا ..

فمن حسن حظه أن أحد الجنرالات السوفيت طالع قصة الانفجار ، وبدا له أن كشفه يمكن أن يقود إلى ابتكار سلاح جديد فتاك ، قادر على سحق الأعداء بضربة واحدة ..

ولأن ذلك الجنرال كان يحتل منصبًا رفيعًا ، فى القيادة الجديدة ، فقد أصدر أوامره إلى طاقم أمنه ، بالبحث عن المهتمين بأمر ذلك الانفجار ، مما قاده على نحو غير مباشر إلى (كوليك) ..

وبعد مطالعة ملف (كوليك) ، وسعيه للبحث عن تمويل لرحلته الاستكشافية ، رفع ذلك الجنرال سمّاعة هاتفه ، واتصل بأكاديمية العلوم السوفيتية ، وكان ما كان ..

ولم يكن (كوليك) يعلم كل هذا ، إلا أنه ، حتى ولو عرف كل التفاصيل ، لم يكن ليتنازل قط عن تلك الفرصة الذهبية ، لبحث أسباب انفجار (سيبيريا) ..

وفى كل الأحوال ، لقد قبل التمويل وتمسك به ، وتشبث بالفرصة ، وبدأ رحلته ..

ويا لها من رحلة ..

لقد استقل (كوليك) وفريقه القطار ، وقطعوا به (سيبيريا) كلها تقريبًا ، حتى نهاية الخط ، فى بلدة (تيشيت) ، ومن هناك استخدموا الجياد والزحافات ، حتى (فانافارا) ..

و(فانافارا) هذه كانت آخر المناطق المأهولة والمسكونة ، فى صحراء (سيبيريا) الجليدية ، قبل أن تبدأ منطقة (التايجا) ..

ولو أنك ذكرت كلمة (التايجا) ، فى أى مكان من الاتحاد السوفيتى ، فى تلك الفترة ، لاتسعت عيون سامعيك فى هلع ، واصطكت أسنانهم وركبهم فى رعب بلاحدود ..

هذا لأن (التايجا) هى المجهول ..

المنطقة الرهيبة من (سيبيريا) ، فى ذلك الحين ، والتى ظلّت تثير الرعب فى القلوب والنفوس ، حتى بعد أن أقيمت فيها بعض المدن الحديثة ، بعد الحرب العالمية الثانية ..

ولأن الفضول العلمى يفوق دومًا الخوف والرعب ، التقط (كوليك) وفريقه أنفاسهم فى قوة ، ثم غاصوا فى (التايجا) ...

وكانت مرحلة رهيبة بحق ، من تلك الرحلة ..

الرحلة التى استغرقت شهرًا كاملاً ، فى أعماق (التايجا) ، ذاق خلالها (كوليك) وفريقه الأمّرين ، وواجهوا الأهوال ، وسط صقيع (سيبيريا) ، وثلوجها الرهيبة ، حتى بلغوا نهر (ميكيرتا) ..

وهناك ، كانت البداية ..

لأوّل مرة ، منذ بدأت الرحلة ، رصد (كوليك) وفريقه أوّل علامة من علامات الانفجار ..

كانت كل الأشجار فى المنطقة قد اقتلعت من جذورها ، وتراصت على نحو منتظم ، ككتيبة عسكرية لقيت مصرعها فجأة ، أثناء طابور الصباح ..

وكانت كلها تلتزم باتجاه واحد ..

فكل قممها ، بلا استثناء ، كانت تتجه نحو الجنوب الشرقى ..

وسجّل (كوليك) هذه الملحوظة ..

وقام الرسّام المصاحب للفريق برسم الأشجار ، فى موضعها هذا ..

ثم واصل الكل رحلتهم ..

وكلما توغّلوا أكثر ، كانت علامات الدمار تبدو أكثر شدة وبشاعة ..

حتى أشجار (التيجا) الهائلة ، اقتلعها الانفجار اقتلاعًا من جذورها ، وصفّها على النحو نفسه ، بحيث كانت قممها كلها فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وجذورها تشير إلى الشمال الغربى ، حيث مركز الانفجار حتمًا ..

ومع الدمار والخراب ، بالإضافة إلى الإرهاق والتعب ، والرعب والهلع ، توقّف أفراد فريق (كوليك) ورفضوا الاستمرار فى الرحلة ..

وهنا ، انتقل كل الرعب والهلع إلى (كوليك) نفسه ، الذى حاول فى استماتة إثنائهم عن قرارهم ، وإقناعهم بمواصلة الرحلة ..

ولكن هيهات ..

الرجال الذين التهمهم الرعب ، تشبّثوا بموقفهم ، وأصرّوا على قرارهم ، وكأنما يدركون أن الجحيم ينتظرهم ، لو تقدموا كيلومترًا واحدًا ..

ولم يعد أمام (كوليك) سوى الانصياع ..

وبقلب تملؤه الحسرة ، انصاع (كوليك) للموقف ، وأنهى الرحلة ، وعاد إلى (موسكو) بكل المرارة ..

ولكنه لم يستسلم ..

ولأنه لم يكن قد استهلك كل التمويل المخصص لحملته ، راح (كوليك) يبحث عن مرافقين جدد ، إلى أن عاود الكرّة مرة أخرى ، فى يونيو من العام نفسه ..

وبدأ رحلته من جديد ..

الفارق الوحيد ، فى هذه المرة ، هو أنه كان يعرف طريقه جيّدًا ، حتى إن الرحلة قد استغرقت وقتًا أقل بكثير ، للوصول إلى (التايجا) ، والتوغّل فيها ، حتى بلغ منطقة يُطلق عليها اسم (المراجل) ..

وهناك ، خفق قلبه فى شدة ..

بل وبمنتهى الشدة ..

ففى تلك المنطقة ، عند نهر (تانجسكا) ، كان كل شىء يؤكد أنهم فى مركز الانفجار ..

فالأشجار المقتلعة ، لم تكن قممها تتجه نحو الجنوب الشرقى فحسب ، بل نحو كل الاتجاهات ، وهى متراصة على نحو منتظم ، تاركة فيما بينها دائرة واسعة خالية تمامًا ..

خالية من الأشجار ، والنباتات ..

وحتى الحشرات ..

الأعشاب الصغيرة ، المقاومة للبرودة ، كانت تنمو وتنتشر فى كل المنطقة .. فيما عدا تلك الدائرة ..

وأمام ذلك المشهد ، وقف (كوليك) وفريقه مبهورين ، وبدا لهم أنهم قد توصلوا إلى كشف هائل ، مما أعاد النشاط إلى عروقهم ، فراحوا يسجلون ويرسمون ويصورون كل ما حولهم .

وبالذات تلك النباتات ، التى بدت غريبة وغير مألوفة ، عند الحدود القريبة للدائرة ..

ومن منطلق تخصصاتهم ، راح كل منهم يكتب تقريره ، ويصف ما يراه ..

ثم بدأت الحالات المرضية ..

المغص ، والإسهال المعوى ، والتقرحات الحادة ..

ومرة أخرى ، اضطر (كوليك) للعودة مع فريقه ، ولكنه فى هذه المرة ، كان يحمل تقريرًا موقعًا من معظم أفراد الفريق ، يؤكد أن ما حدث فى (تانجسكا) هو أن نيزكا هائلا من الصلب قد هوى على المكان ، وانفجر ، مسببًا كل هذا الدمار ..

وكان (كوليك) مطمئنًا تمامًا إلى تقريره هذا ، وإلى أنه قد وجد حل اللغز ، وأنهى مشكلة الانفجار الغامض ، على الرغم من أنه لم يستطع تفسير الأعراض التى أصيب بها بعض أفراد الفريق ، والتى أدت إلى موت اثنين منهم ، ولا ما أصاب تلك النباتات المتحوِّرة ، عند مركز الانفجار ..

ولم تكن لديه حتى الفرصة للبحث عن التفسير ..

فعقب إصداره كتابه ، المعروف باسم (انفجار سيبيريا .. التفسير الحاسم) ، وتعليق العلماء عليه ، اندلعت الحرب العالمية الثانية ، واشتعلت النيران فى (أوروبا) كلها ، ثم لم تلبث أن امتدّت إلى الاتحاد السوفيتى نفسه ..

وتغيَّر معها الموقف كله ، بالنسبة للعالم الشاب (كوليك) ، وبالنسبة لفكرة انفجار (سيبيريا) نفسها ..

تغيَّر تمامًا .

* * *

٣ ـ نظرة جديدة ..

● فى عام ١٩٣٩م ، وبعد مرحلة طويلة من تثبيت الأقدام ، وإعادة بناء الجيش ، أسفر (أدولف هتلر) عن نواياه الحقيقية ، وبدأ فى اجتياح أوروبا بلا هوادة ..

وعلى الرغم من معاهدة الدفاع المشترك التى وقّعها مع السوفيت ، قرّر (هتلر) فجأة غزو (روسيا) ، فأطلق جيوشه نحوها ، فى عملية رهيبة ، حملت اسم (باربا روسا) ، أو ذى اللحية الحمراء ..

وانطلقت الجيوش النازية نحو روسيا الحمراء ، وراحت تحصد كل من يواجهها من أرواح ، بلا رحمة أو شفقة ..

ومن بين من حصدتهم الأسلحة النازية ، كان العالم الشاب (ليونيد كوليك) ، بكل خبرته ومعلوماته عن انفجار (سيبيريا) ..

ومع الانفجارات والنيران والرصاصات ، فى كل مكان ، لم يبال أحد بموت (كوليك) ، أو بقصة ذلك الانفجار الغامض فى (تانجسكا) ..

ولكن التقدُّم الألمانى لم يستمر ..

فمع مجموعة من القرارات الديكتاتورية الخاطئة ، بدأ النازيون يتلقون الهزيمة تلو الأخرى ، مما أجبرهم على التراجع ، والانحدار ، والهزيمة المريرة ، فى قلب (برلين) نفسها ..

وحتى لا يقع فى قبضة السوفيت ، انتحر الزعيم النازى (أدولف هتلر) ، مع عدد من رجاله ، وأطبق الحلفاء على (برلين) من الجانبين ، واندحرت (ألمانيا) النازية ، وسقط الرايخ الثالث سقوطًا مدويًا ..

وبعد فترة قصيرة ، ألقت (أمريكا) قنبلتيها الذريتين ، على (هيروشيما) و(ناجازاكى) ، ومحتهما تمامًا من الخريطة ، لتضع الحرب أوزارها ، وتبدأ عملية إعادة البناء ، فى (أوروبا) والاتحاد السوفيتى ..

وفى الوقت ذاته ، بدأت عملية رصد آثار القنبلة الذرية ، وتداعياتها ، وتأثيراتها الإشعاعية ، و ...

وفجأة ، توقّف أحد العلماء أمام التقارير ، التى تصف آثار قنبلة (هيروشيما) ، والتى بدت له مشابهة كثيرًا لتقارير (ليونيد كوليك) ، حول ذلك الانفجار الغامض فى (تانجسكا) ..

ذلك العالم كان سوفيتيًا أيضًا ، يُدعى (زولوتوف) ، وكان أحد المسئولين عن دراسة آثار انفجار (هيروشيما) ؛ لمعرفة طبيعة ذلك السلاح الرهيب ، الذى توصّل إليه الأمريكيون ، وحصلوا بموجبه على زعامة العالم كله بضربة واحدة ..

وعلى الرغم من دقة مهمة (زولوتوف) وخطورتها ، فقد انشغل لبعض الوقت ، فى البحث عن أوجه التشابه الكبيرة ، بين انفجار (هيروشيما) ، وانفجار (سيبيريا) الغامض .

ففى الحالتين ، ووفقًا لتقارير بعثة (كوليك) ، كان التدمير أقل نسبيًا فى مركز الانفجار ، منه فى أطرافه ..

كما أن بعض الأشجار قد ظلّت واقفة فى المركزين ..

وفى كل من الانفجارين ، ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان ، على شكل فطر عش الغراب ، وفى كليهما نبتت النباتات فى سرعة ، بعد فترة قصيرة ، فيما عدا منطقة المركز ..

الفارق الوحيد ، الذى وجده (زولوتوف) ، هو أن عمود الدخان واللهب ، قد ارتفع لمسافة أعلى بكثير ، فى انفجار (سيبيريا) ، عنه فى انفجار (هيروشيما) الرهيب ..

وبسرعة ، ودون أن يضيع لحظة واحدة ، راح (زولوتوف) يجرى حساباته ، ويضع معادلاته ، ويدرس الانفجارين ، قبل أن يتوصّل إلى نتيجة مدهشة ، أذهلته هو شخصيًا قبل سواه ..

فوفقًا لما توصّل إليه ، لم يكن انفجار (سيبيريا) بسبب نيزك من الصلب ، وإنما كان انفجارًا ذريًا ، بكل ما تحمله الكلمة من معان ..

انفجار أقوى ألف مرة من انفجار (هيروشيما) ..

وبكل لهفة ، حمل (زولوتوف) كل حساباته ، ومعادلاته ، ونتائجه إلى القيادة العسكرية ، ووضعها بين أيديهم ، مطالبًا بتمويل حملة اسكتشافية جديدة ، لكشف لغز ما حدث هناك ..

فى أعماق (سيبيريا) ..

وفى تلك الفترة بالتحديد ، ومع النتائج التى توصّل إليها (زولوتوف) ، لم يكن من العسير عليه أن يحصل على التمويل اللازم ..

بل وأكثر من اللازم أيضًا ..

فالسوفيت ، فى تلك المرحلة ، كانوا مستعدين لدفع أعمارهم نفسها ، فى سبيل كشف أسرار القنبلة الذرية ، والفوز بوسيلة إنتاج السلاح نفسه ، الذى وضع الأمريكيين على قمة العالم ..

وفى أوائل عام ١٩٤٧م ، قاد (زولوتوف) حملته إلى (التايجا) ، حيث مركز انفجار (تانجسكا) ، فى قلب (سيبيريا) ..

ولم تكن الرحلة شاقة هذه المرة ، كما كانت مع فريق (كوليك) ، فقد تطوّرت وسائل النقل ، والطيران والإعاشة ، كتداع حتمى لسنوات الحرب الطويلة ..

ووصل (زولوتوف) وبعثته إلى مركز الانفجار ، وهم يرتدون ثيابًا واقية من التأثيرات الإشعاعية النووية ، بعد أن افترض العالم السوفيتى أن كل الأعراض ، التى أصابت كل من سعى لحل لغز انفجار (سيبيريا) الغامض ، قد نجمت عن التأثيرات الإشعاعية ، التى لم يكن من الممكن أن يفهمها أو ينجح فى تشخيصها الأطباء ، قبل انفجار (هيروشيما) ..

ولقد بدأت بعثة (زولوتوف) دراستها للأمر من منظور جديد ومختلف تمامًا ..

وكانت النتائج مدهشة .. بل مذهلة ..

وإلى أقصى حد ..

فكل شيء ، فى مركز الانفجار ، كان يشير إلى الآثار النووية لما حدث ..

كانت هناك تغيرات وراثية عنيفة ، فى نباتات وحشرات (سيبيريا) ، فى منطقة الانفجار ، توحى بأن أجدادها قد تعرّضت لإشعاعات ذرية ، أدت إلى حدوث تحورات فى جيناتها الأساسية ..

وكانت هناك أيضًا تقرحات واضحة ، على أجسام الحيوانات هناك ، تمامًا كما حدث فى (هيروشيما) بعد الانفجار ..

وسجّل أفراد البعثة كل هذا ، وجمعوا عينات من النباتات والحشرات المتحوّرة ، وأسروا إحدى الحيوانات المصابة ، قبل أن ينتبهوا إلى أن الأمر لا يقتصر على هذا فحسب ..

ففى منطقة الانفجار ، عثر فريق العلماء أيضًا على أنواع من مادة (السيليكا) ، تحوى فى قلبها فقاعات هوائية ، تمامًا كتلك التى يتم رصدها بالتحليل الطيفى ، عبر جهاز (سبكتروجراف) ، للأجسام الفضائية ..

وعثروا أيضًا على قطع من الفسفور النقى ..

والفسفور النقى مادة يستحيل وجودها فى الطبيعة ، بل ويحتاج تصنيعها إلى تكنولوجيا كانت ومازالت عسيرة ومعقّدة للغاية ..

وكانت هناك عناصر نادرة ، ومثيرة للدهشة ، مثل عنصر الديوتريوم النادر جدًا ..

ودون أدنى تردُّد أو شك ، سجّل العلماء فى تقريرهم أن ما حدث عند نهر (تانجسكا) ، فى أعماق (سيبيريا) ، هو انفجار نووى ، بشكل أو بآخر ..

ولم يكتف العلماء بهذا ..

لقد أكدّوا أيضًا أن ذلك الانفجار النووى لم يحدث ، عند ارتطام جسم ما بكوكب الأرض ..

لقد حدث ، قبل أن يبلغ ذلك الجسم الأرض !!

وبالتحديد على ارتفاع ثمانية كيلومترات بالتحديد ..

الأمر إذن لا يمكن أن ينشأ عن نيزك من الصلب ، كما قالت تقارير فريق (كوليك) فيما قبل ..

لقد كان أمرًا مختلفًا ..

مختلف تمامًا ..

ووسط كل هذا النشاط ، كان (زولوتوف) يعيد حساباته ، ومعادلاته ، ويستمع إلى أقوال الشهود ..

ليس شاهدًا أو شاهدين ، أو حتى عشرة ..

لقد جمع (زولوتوف) هذه المرة أقوال أكثر من سبعمائة شاهد عيان ، استمع إليهم جميعًا في صبر واهتمام ، ودرس كل كلمة نطقوا بها ، وكل إشارة المحوا إليها ..

وبعد كل هذا ، خرج (زولوتوف) إلى فريقه بنظرية جديدة تمامًا ..

نظرية فجَّرت كل دهشتهم ، وحيرتهم ..

واستنكارهم أيضًا ..

فالواقع أن نظرية العالم الأكاديمي السوفيتي (زولوتوف) كانت غريبة بحق ..

غريبة ومذهلة ..

إلى أقصى حد .

* * *

٤ـ النظرية ..

● مع رصد العالم الأكاديمي السوفيتي (زولوتوف) لأقوال شهود العيان ، في واقعة انفجار (سيبيريا) ، استوقفه وصف مدهش ، اتفق عليه أكثر من سبعمائة شاهد ..

فمع اختلاف طبائعهم ومواقعهم ، اتفق الشهود السبعمائة ، على أن ذلك الجسم الأسطواني المنتظم ، الذي هبط لينفجر على ارتفاع ثمانية كيلومترات من سطح الأرض ، محدثًا ذلك الدمار الرهيب ، قد تحرك أفقيًا ، أو على نحو شبه أفقي ، من الجنوب الشرقي ، إلى الشمال الغربي ، وكأنه يُجرى مناورة مدروسة ، قبل أن يهوى إلى أسفل ، وينفجر ..

وكان هذا يعني أنه ليس كتلة جامدة ، أيًا كان شكلها ، عبرت الغلاف الجوي ، لتنفجر فوق الأرض ، بعد سقوطها أسيرة الجاذبية الأرضية ..

لقد كان جسمًا يمكن تغيير اتجاهه ، ودفعه إلى القيام بمناورة ما ، لم تنجح في منع سقوط أو انفجاره ..

لذا ، فقد أعلن (زولوتوف) نظريته الجديدة ، التي أصبح يؤمن بها تمامًا ، وهي أن ذلك الجسم ، الذي أحدث انفجار (سيبيريا) ، كان سفينة فضاء !

سفينة قادمة من عالم آخر ، وتستخدم الطاقة النووية فى تسييرها ، وأن ركابها أدركوا أنها ستنفجر لامحاولة ، فاتجهوا بها نحو منطقة غير مأهولة ، لتنفجر دون أن تؤذى سكان الأرض !!

ووفقًا لنظرية (زولوتوف) ، يكون كل ما عثر عليه العلماء فى المنطقة ، هو بقايا المركبة الفضائية بعد انفجارها النووى ..

وفى فترة كهذه ، كان من الطبيعى أن تقابل نظرية (زولوتوف) بالاستنكار الشديد ، إلا أن واقعة رجل الأعمال (كينيث أرنولد) ، فى (واشنطن) ، عام ١٩٤٦م ، والتى رصد خلالها مجموعة من الأطباق الطائرة ، ومنحها ذلك الاسم ، الذى ظل يرتبط بها ، حتى يومنا هذا ، امتزجت بنظرية (زولوتوف) ، لتنطلق إلى آلاف العقود ، وتحصل على صدى مدهش ..

أصحاب العقول المنطلقة والخيال الجامح ، مالوا كثيرًا إلى تصديق نظرية (زولوتوف) ، وتأييدها بكل الحماس ، خاصة وقد وجدوا فيها التفسير المنطقى والعلمى ، لكل ما كان يحيط بالموقف كله من غموض ..

ولكن العلماء رفضوا تأييد تلك النظرية بشدة ..

لقد أكدّوا أن انفجارًا بهذا الحجم ، من المستحيل أن يترك أية بقايا ، يمكن أعتبارها الدليل على سقوط سفينة فضائية ، من عالم آخر !

بل إن فكرة وجود حياة عاقلة متطوّرة ، خارج حدود كوكب الأرض ، كانت مرفوضة بإصرار ، من قبل معظم العلماء ، دون أدلة مادية حتمية على هذا ..

ولقد دافع (زولوتوف) عن نظريته بإلحاح وحماس ، وتمسّك بها بمنتهى الشدة ، فى وجود مخالفيه ، ومعارضيه ، ومستنكريه ..

إلا إن القيادة العسكرية السوفيتية لم يرق لها هذا الصراع العلمى ، ولو لحظة واحدة ..

لقد موّلت حملة (زولوتوف) لسبب واحد ، ألا وهو العثور على أسرار القنابل الذرية ، والانفجارات النووية فى قلب (سيبيريا) ، وما دام هذا لم يتحقّق ، فلاشأن لها بكل ما يحدث ..

لذا ، فقد أخمدت نظرية (زولوتوف) ، وتم توجيه اللوم الشديد لصاحبها ، بل وتحجيم دوره العلمى ، فى الأوساط السوفيتية أيضًا ..

ومع انخفاض صوت (زولوتوف) ، ارتفعت أصوات معارضيه ومخالفيه ، وذابت نظرية الجسم الفضائى الموجّه ، على الرغم من كل ما تحمله من إثباتات ودلائل ، وتوارت خلف عدة نظريات أخرى ، تفوّقت عليها كلها تلك النظرية الجديدة ، التى وضعها العالمان (ا . جاكسون) ، وزميله (ب . رايان) ، والتى خالفت كل النظريات السابقة ..

فمن وجهة نظر العالمين ، كان الانفجار ناشئًا عن ارتطام أحد الثقوب السوداء ، ذات الحجم الدقيق بالأرض ، مما أحدث هذا الانفجار الهائل الرهيب ، فى منطقة (سيبيريا) ..

والثقوب السوداء هذه هى نجوم محتضرة ، انكمش حجمها بشدة ، بعد نفاد طاقتها ، فتضاعفت كثافتها آلاف المرات ، وتزايدت جاذبيتها إلى حد مخيف ..

وعلى الرغم من أن تلك الثقوب السوداء تمتص كل ما حولها ، حتى الضوء نفسه ، إلا أن حجمها يتقلّص أكثر وأكثر ، حتى يبلغ ما قد لا يزيد حجمه عن حجم قبضة يد عادية ..

ومع شدة جاذبيتها ، وصغر حجمها الشديد ، قد تنجذب الثقوب السوداء نحو الكواكب الأكبر حجمًا ، عند رغبتها فى جذبها إليها فتندفع نحوها بسرعة هائلة ، حتى ترتطم بها ..

ثم يحدث الانفجار ..

إذن ، فوفقًا لنظرية (جاكسون) و(رايان) ، انجذب ثقب أسود صغير نحو الأرض ، وارتطم بها ، وأحدث ذلك الانفجار الهائل !!

والنظرية قابلة للحدوث ، من الناحية الافتراضية والعلمية ، إلا أنها لا تفسّر أقوال شهود العيان ، عن الشكل الأسطوانى للجسم الساقط ، ولا عن مناورته الأفقية ، قبل سقوطه وانفجاره ..

بل ولم تفسّر حتى العثور على تلك العناصر ، فى مركز الانفجار ، او التحوّرات الوراثية ، فى النباتات والحشرات من حوله ..

ولم تفسّر أكثر تلك الأمراض ، التى أصابت الباحثين عن اللغز ، أو معدلات (زولوتوف) ، التى تربط بين الانفجار وقنبلة (هيروشيما) ..

لذا فقد فنيت تلك النظرية ، بأسرع مما ولدت ..

ولقد حاول فريق من الباحثين الأمريكيين ، فى بدايات السبعينيات ، السفر إلى (سيبيريا) ، لرصد الترددات الإشعاعية فى منطقة الانفجار ، وتحديد ما إذا كان ما حدث هناك انفجارًا نوويًا من عدمه ..

ولكن السلطات السوفيتية رفضت هذا بشدة ..

ولقد برّر السوفيت رفضهم حينذاك ، بأن منطقة (التايجا) وما حولها ، قد أصبحت منطقة عسكرية محظورة ، وأن التداعيات الأمنية تمنع تمامًا وجود أى أجانب هناك ..

ومهما كانت الأسباب ..

والواقع أن السلطات العسكرية السوفيتية كانت قد أحاطت تلك المنطقة ، من نهر (تانجسكا) ، فى قلب (سيبيريا) ، بنطاق فولاذى رهيب ، وكأنها تحاول حماية سر ما داخله ..

سر ربما كشفه فريق علمائها ، الذى انشأ مركزًا دائمًا هناك ، لسبب لم يعلن عنه أبدًا ، ولم تنشر أبحاثه قط ، على المستوى العام ..

ولقد أغضب قرار السوفيت فريق العلماء الأمريكى بشدة ، وراح بعضهم يؤكّد أن الجهات العسكرية السوفيتية قد توصّلت بالفعل إلى سر انفجار (سيبيريا) الغامض ، وأنها تخفى ما توصّلت إليه ، لأنه يمنحها تفوقًا تكنولوجيًا رهيبًا ، تحرص على الحفاظ عليه لنفسها وحدها ..

وعلى كل الأحوال ، وأياً كانت أسباب رفض السوفيت ، أو مبررات غضب الأمريكيين ، فقد أصبحت منطقة (تانجسكا) مغلقة ، ولم يعد أمام العلماء سوى وضع نظريات جافة ، تعتمد على تقارير بعثتى (كوليك) و(زولوتوف) وحدهما ..

ولكن هذا لم يوقف المهتمين بالأمر ، أو يفت فى عضدهم ، فقد واصلوا دراسة تلك التقارير القديمة ، ليخرجوا علينا بنظرية جديدة مدهشة ..

نظرية المادة المضادة ..

فمن (كاليفورنيا) ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، خرج العالمان (س . أتلورى) ، (ف . ليبى) ، بنظرية تقول : إن جزءًا من المادة المضادة قد سبح طويلاً فى الكون ، حتى سقط أسيرًا للجاذبية الأرضية ، التى جذبته إلى الأرض ، حيث انفجر فى هوائها ..

والمادة المضادة هذه هى مادة معكوسة ، بالنسبة لقواعد المادة المعروفة فى عالمنا ..

فالتركيب الذرى الطبيعى ، لكل عنصر فى عالمنا ، يعتمد على وجود نواة موجبة ، تدور حولها إليكترونات سالبة ، أما تركيب الذرة ، فى المادة المضادة ، فهو يعتمد على نواة سالبة ، تدور حولها بوزيترونات موجبة ..

ووفقًا للقاعدة العلمية ، لو التقت المادة بالمادة المضادة ، يكون الناتج إنفجارًا هائلاً تمامًا مثل انفجار (سيبيريا) ..

ولقد لاقت نظرية المادة المضادة هذه بعض القبول ، من بعض فرق العلماء ، إلا أن البعض الأخر اعترض عليها تمامًا ، مؤكّدًا أنها عاجزة عن تفسير كل غموض الانفجار ..

وبالذات التحورات الوراثية ..

وهنا ، كان من الضرورى البحث عن نظرية جديدة ، لتفسير الموقف بأكمله ..

وهذا ما فعله أحد العلماء الفرنسيين ، عندما فاجأ العالم كله بإعادة طرح نظرية (كوليك) ، ولكن مع تطوير جوهرى .. للغاية ..

* * *

٥ـ المذنّـــب ..

● لأكثر من عشر سنوات ، راح العالم الفرنسى (ا. فرانسوا) يقرأ ويدرس كل ماكُتب عن انفجار (سيبيريا) ، بمنتهى الدقة والاهتمام ، قبل أن يجد فى نفسه ميلاً شديدًا للاقتناع بما اقتنع به العالم السوفيتى الشاب (ليونيد كوليك) ، منذ عشرينيات القرن العشرين ..

فمن وجهة نظره أيضًا ، كان ما حدث فى أعماق (سيبيريا) ناشئًا عن سقوط جسم ما من السماء ، كان يحوى بعض المواد النادرة ، التى أحدثت ذلك الانفجار النووى ، وتركت خلفها بعض العناصر والتأثيرات ، التى رصدها العلماء فيما بعد ..

ولكن ذلك الجسم لم يكن نيزكًا ..

بل كان مذنّبًا ..

والفارق بين النيزك والمذنّب ، هو أن الأخير ينتمى إلى نوع من الأجرام السماوية سحابية الشكل ، ذات طبيعة دورية ، ومسارات تدور حول الشمس ، ويظهر للراصد وكأنه يجرّ خلفه ذيلاً طويلاً ، منحه اسمه هذا ويتكوّن ذلك الذيل من الغازات المتجمدة ، أو المحفوظة ، إلى جوار كميات من الغبار ، والغاز ، والجليد ..

والمذنّب له نواة أو أكثر ، ويتكوّن من صخور أو حبيبات رملية ، من عدة عناصر ، تتخللها مواد غازية ..

ووفقًا لنظرية (ا. فرانسوا) ، كان ما سقط على نهر (تانجسكا) ، فى أعماق (سيبيريا) ، وأحدث ذلك الانفجار الغامض الرهيب هناك ، هو مذنّب يتكون من بعض العناصر النادرة مثل (الديوتريوم) والفسفور النقى ، ضلّ طريقه فى الفضاء ، أو ارتطم بأحد النيازك ، مما سبّب انحرافًا فى مساره الدورى ، ودفعه نحو جاذبية الأرض ..

كانت نظرية (فرانسوا) مدهشة ومفاجئة بالفعل ، وتستحق التوقّف والدراسة ، خاصة وأنها تتفق مع نظرية افتراضية تبناها عشرات العلماء لفترة طويلة ، وتقول إن شيئًا مماثلاً قد حدث منذ ملايين السنين ، حيث سقط مذنّب آخر على الأرض ، وصنع انفجارًا مماثلاً ، ولكن أكثر قوة بمليون مرة ، منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون عام ..

وكان ذلك الانفجار ، القديم جدًا ، هو السبب فى فناء الديناصورات ، وافساح المجال لنا نحن البشر ، لننمو ونتطوّر ..

وفقًا لنظرية (فرانسوا) إذن ، والتى اتفق معها عشرات العلماء ، لم يكن انفجار (سيبيريا) هو الأوّل من نوعه ..

ولن يكون الأخير ..

فالمذنبات ، التى اعتبرها العلماء يومًا قادمة ، من خارج المجموعة الشمسية ، هى جزء منها بالفعل ، وتجوبها طوال الوقت ، وأنه من المحتمل جدًا أن يحدث ما يغير اتجاهها ، ويبدل مسارها ، فتسقط على أى كوكب ، من كواكب المجموعة الشمسية ..

وتنفجر هناك ..

وينتهى العنف ..

ولأول من ، منذ عام ١٩٠٨م ، أعلن معظم العلماء تاييدهم لنظرية تتعلق بانفجار (سيبيريا) الرهيب ، وكأنهم يحاولون وضع نهاية للأمر ، وحسم مشكلة طال بحثها ..

وبدا وكأن الأمر قد انتهى هنا ، ولم يعد هناك ما يبرر مواصلة البحث ، على الرغم من أن الأوساط العلمية السوفيتية قد لزمت الصمت تمامًا ، ولم تعلن تأييدها أو رفضها للنظرية ، وكأن الأمر لا يعنيها ، أو كأنها أيضًا ترغب فى إنهاء الموقف ، ووضع تفسير يحسم الأمور ، ويخمد الجدل الدائر حول الانفجار الغامض ..

ولكن ، وبعد أن استقرت كل الأمور ، وهدأت الضجة ، أصيبت نظرية المذنب هذه بطعنة مفاجئة عنيفة ، سحقتها من أساسها ..

وأعجب ما فى هذه الطعنة المفاجئة كان مصدرها نفسه ..

فالعالم الذى اعترض على النظرية ، ورفضها ، وأعلن أنها لا تتفق أبدًا مع نقاط أساسية فيما حدث ، كان (ا . فرانسوا) نفسه ..

فبعد أن حصل على تأييد معظم العلماء واهتمامهم ، وبدا وكأنه الشخص الذى حسم لغز انفجار (سيبيريا) ، انتبه (ا . فرانسوا) فجأة إلى أن نظريته كلها تتعارض مع نقطة جوهرية للغاية ، لم يبال بها فى البداية ، ثم بدت له فيما بعد كأخطر نقطة ، فى العملية كلها ..

أقوال الشهود ..

شهود العيان السبعمائة ، الذين وصفوا مناورة الجسم الساقط ، والذى انفجر على مسافة ثمانية كيلومترات ، من سطح الأرض ..

والذى جذب انتباه (فرانسوا) ، لم يكن تلك المناورة ، التى قام بها ذلك الجسم ، وإنما الوصف الأساس له .. جسم أسطوانى منتظم ..

فالمذنّب ، وفقًا لتكوينه الأساسى ، لا يمكن أن يوصف أبدًا بأنه جسم أسطوانى منتظم ..

وكم كانت دهشة الأوساط العلمية على اختلافها ، عندما أعلن (ا . فرانسوا) خطأ نظريته ، واعتذاره العلمى عنها ..

فقد كان التداعى الطبيعى لهذا ، هو إعادة فتح باب البحث عن تفسير منطقى للغز الانفجار ..

انفجار (سيبيريا) الغامض ..

ومرة أخرى ، عاد مجموعة من الباحثين ، والدارسين ، والعلماء ، إلى مراجعة تقارير بعثتى (كوليك) و(زولوتوف) ..

ومع نهايات ثمانينات القرن العشرين ، وتوسّع العلوم فى شتى المجالات ، وتطوّر أجهزة الكمبيوتر ، معدات التماثل ، وبرامج المحاكاة ، بدأ العلماء فى صنع تصوّر إليكترونى لانفجار (سيبيريا) ..

وعبر برنامج المحاكاة المتطور ، تم وضع كل التفاصيل ، التى وردت فى التقريرين ، عن زاوية سقوط ذلك الجسم المجهول ، ومناورته ، وانفجاره على ذلك الارتفاع ، والتأثيرات التى خلفها مباشرة ، وعن طريق التحورات الوراثية فيما بعد ..

وجاءت نتائج المحاكاة مدهشة ..

فلأن الكمبيوتر جهاز محايد ، لا شأن له بالتفاعلات النفسية أو الأراء المسبّقة ، أو التعصّبات غير المنطقية ، فقد فسّر الأمر بنفس التفسير ، الذى وضعه (زولوتوف) ، عام ١٩٤٧م ..

الجسم الفضائى ..

الكمبيوتر أكّد أن الانفجار ناشئ عن جسم صناعى ، يستخدم طاقة نووية لحركته وانطلاقه ، وأنه قد سقط على الأرض لسبب ما ، يعتقد أنه عطل فى محركاته ، أو وسيلة تحريكه ، وجرت محاولة لإصلاح ذلك العطل ، أو تأمين عملية هبوط طارئة ، إلا أن تلك المحاولة قد فشلت ، بعد مناورة محدودة ، وأدى فشلها إلى انفجار ذلك الجسم على ارتفاع ثمانية كيلومترات عن سطح الأرض ،

انفجارًا نوويًا هائلاً ، أدى إلى كل هذا الخراب والدمار ، الذى تركه خلفه ، والبقايا التى انتشرت على مساحة واسعة ، حاملة تلك العناصر النادرة ، التى تم العثور عليها ، والتى وردت فى تقرير بعثة (زولوتوف) والأخرى التى لم ترد فى التقرير ، والتى ربما عثر عليها السوفيت فيما بعد ، والتى جعلتهم يغلقون المنطقة تمامًا ، ويعتبرونها منطقة عسكرية محظورة .

وعلى الرغم من تأييد الكمبيوتر المحايد لنظرية (زولوتوف) ، الخاصة بالمركبة الفضائية ، ظل فريق من العلماء يستنكر الفكرة تمامًا ، ويرفض الاعتراف بوجود مخلوقات عاقلة فى كواكب أخرى ، يمكنها أن تصل إلى الأرض ، وتصنع ذلك الانفجار النووى ، بأى حال من الأحوال ..

وفى تسعينات القرن العشرين سقط الاتحاد السوفيتى ، وبدأ تقسيمه إلى دويلات متفرّقة ، تحمل أعلامًا مختلفة ، وتصوّر العلماء أن هذا سيؤدى إلى إزالة الحظر الأمنى عن منطقة نهر (تانجسكا) أو كشف أسرار انفجار (سيبيريا) ..

ولكن هذا لم يحدث أبدًا ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

الروس ظلوا يحيطون تلك المنطقة بسياج أمنى منيع ، ويحظرون الاقتراب منها ، أو تصويرها ، أو إجراء أية ابحاث خارجية حولها ..

ولقد حاول المريكيون رصد منطقة الانفجار ، بوساطة أقمارهم الصناعية ، إلا أن هذا لم يسفر عن شىء ..

وظل الغموض مستمرًا ..

فحتى هذه اللحظة ، وأيًا كانت النظريات ، أو الأسباب ، أو المبرّرات ليست أمامنا سوى حقيقة واحدة مؤكّدة ..

لقد كان هناك انفجار هائل رهيب ، عند منطقة نهر (تانجسكا) فى أعمق أعماق (سيبيريا) ..

انفجار ، كان ولا يزال يحمل نفس الغموض ..

ونفس الاسم ..

اسم (انفجار سيبيريا) ..

الغامض ..

* * *

تمت بحمد الله ..

ورحل الصديق ...

مع ذكريات البيجاما الكستور ..

(مرثية)

منذ طفولتى ، فى مدينة (طنطا) ، ارتبطت بمجموعة محدودة من الأصدقاء ، الذين تواصلت علاقتى معهم ، عبر سنوات الدراسة ، مع اختلاف اتجاهاتنا الجامعية ، ثم استمرّ ارتباطنا القوى ، إلى حد ذابت معه كل الحواجز ، والتحمت كل الأفكار ، واتحدت العقول ، وصار اللقاء متعة ، ما بعدها متعة ..

ومن بين الصداقات القوية المتينة ، التى حملت رائحة (طنطا) ، وذكريات أيام الطفولة والصبا ، كانت صداقتى لرفيق العمر (حسام عوض) ..

وعبر بحر ذكرياتى كلها ، أكاد أجزم بأن (حسام) ، لم يتغيّر أبدًا ، فعندما كنا نلتقى ونتحاور ، بعد أن أصبح رئيسًا للجنة الشباب فى مجلس الشعب ، وأمينًا عامًا لشباب الحزب الوطنى الديمقراطى ، كنت أشعر وكأن الزمن لم يمض بنا يومًا واحدًا ، منذ كنا زميلين فى مدرسة الإنبابى الابتدائية فى (طنطا) ..

نفس البساطة ، والمرح ، وطيبة القلب ، وهدوء النفس ، والاهتمام الشديد بكل الأصدقاء ، والمعارف والأقارب ، وحتى زملاء العمل ..

وأكثر ما كان يسعده ، هو أن نسترجع ذكريات الطفولة ، وأحداث وشقاوة أيام الصبا والشباب ..

وبالذات أيام البيجاما الكستور ، كما يحلو له أن يطلق عليها ، مع حديث الذكريات ..

ففى طفولتنا ، كان موسم الشتاء يرتبط فى أذهاننا دومًا بالبيجاما الكستور ، التى يتم تفصيلها منزليًا ، والتى تتبقى من قماشها دومًا قطعة إضافية ، نحصل منها على طاقية للرأس ، من نفس اللون والنوع ..

حتى عندما كان يقدّمنى ، أو يقدّم أحد الأصدقاء القدامى لأحد معارفه أو زملائه الجدد ، كان يشير إلى أننا صديقين ، منذ أيام البيجاما الكستور ..

وكان هذا يفجّر الضحكات دومًا ..

وفى بعض الأحيان ، وعلى الرغم من مشاغله العديدة ، فى الآونة الأخيرة ، كان الصديق (حسام عوض) يفاجئنى باتصال تليفونى ، لنتراجع معًا ذكريات وأحداث الصبا ، وكأنما يشعر بالشوق الشديد لتلك الأيام ، التى لم يكن يشغلنا فيها إلا القليل ..

أقل القليل ..

ومنذ أقل من شهر واحد (على كتابة هذه السطور) ، بدأ يتحدّث باهتمام عن تدبير لقاء تليفزيونى ، يجمعنا مع أصدقاء زمان ؛ لنتحدّث عن البيجاما الكستور ، وعم (وزة) بائع الكشرى ، وألعابنا بنويات البلح ..

وكان من الواضح أن شوقة للأيام الخوالى قد بلغ مبلغه ..

ورحت بمنتهى الشغف أسعى لتدبير ذلك اللقاء ، و ...

وفجأة ، وأنا خارج الحدود ، وصلنى الخبر الرهيب ..

لقد لقى صديق العمر مصرعه ، فى حادث سيارة رهيب ، فى طريق (مصر) (الإسكندرية) الصحراوى !! ولم أصدّق الخبر ..

لم أصدّقه أبدًا ..

أمن الممكن أن ينتهى الأمر بهذه السرعة ، وهذه البشاعة ..

وشعرت لحظتها أننى لست خارج الحدود فحسب ، ولكننى خارج الدنيا كلها ، وأنا أستعيد ذكرياتنا معًا ، لحظاتنا المرحة ، ولقاءاتنا الدافئة ، المفعمة بصداقة الطفولة ، التى لا تساويها أية صداقة ..

وفى عينى ، جفت الدموع ..

ولكنها انهمرت كأمطار من الدم فى قلبى ..

وكان من المحتم أن أعود ، لأودّع صديق العمر الوداع الأخير ..

وفى سرادق العزاء الكبير ، فى مسجد (عمر مكرم) ، جلست صامتًا ، ساكنًا ، عاجزًا عن التصديق أو الاستيعاب ..

وكعادتى ، حبست كل دموعى وأحزانى ، حتى انصرفت ..

ووحدى ، سمحت لدموعى أن تناسب ، وقد أجبرنى الزمن على أن أصدّق ..

وأستوعب ..

وأدرك ..

لقد رحل صديق العمر ..

رحل الصديق البسيط ، الواثق ، المرح ، طيب القلب ...

رحل صاحب المرح ، والشوق ، وذكريات الصبا ..

فوداعًا يا صديق العمر ..

ووداعًا لذكريات الطفولة والصبا ..

ذكريات البيجاما الكستور .

★ ★ ★

آخر الخط ..

(قصة قصيرة)

أخيرًا ، جاء ذلك اليوم ، الذى تصوّر أنه لن يأتى أبدًا ..

اليوم الذى تنتهى فيه رحلته الطويلة ..

الرحلة ، التى بدأها منذ أربعين عامًا كاملة ..

رحلة الكفاح ..

والصراع ..

والشقاء ..

والتعب ..

يا إلهى ! إنه يتذكّر البداية ، كما لو أنها قد حدثت أمس ..

كان شابًا ، وسيمًا ، طموحًا ، طيب القلب ، حلو المعشر ..

وفقيرًا .. للغاية !

لقد نشأ فى أسرة فقيرة ، كثيرة الأبناء ، قليلة الدخل ، يعانى أفرادها شظف العيش ، ويجدون بالكاد ما يكفى لقوتهم اليومى ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد جاهد والده الفقير ، ليمنحهم جميعًا نعمة التعليم ..

كان حلم حياته أن يرى أولاده أفضل منه ، ينعمون بشهادات عالية ، ووظائف مرموقة ، ودخول تسمح لهم بالعيش ، فى مستوى آمن مطمئن ..

ولأنه كان أوّل الأبناء ، وأكثرهم ذكاءً وطموحًا ، فقد اعتبره والده الأمل الأوّل له ، ولم يدخر جهده ، أو أمواله القليلة ، ليدفعه دفعًا ، فى طريق العلم والتعليم ..

ولقد بذل هو قصارى جهده بحق ، حتى لاتضيع تضحية والده ، أو تذهب جهوده هباءً ..

*

وبتفوق ملحوظ ، تجاوز المرحلة الابتدائية ..

ثم حصل على الشهادة الإعدادية بمجموع مبهر ..

وفى نهاية المرحلة الثانوية ، نشرت صورته فى الصحف ، باعتباره واحدًا من أوائل الطلاّب ، على مستوى الجمهورية كلها ..

وكتطوّر طبيعى ، كان ينبغى أن يلتحق بكلية عملية ، من الكليات المتاحة للمتفوقين من أمثاله ..

وهنا ، حانت لحظة مواجهة الحقيقة ..

صحيح أنه متفوق ، وأنه الوحيد من بين أشقائه ، الذى أمكنه الالتحاق بالمرحلة الثانوية العامة ، وإنه يستحق بتفوقه ، دخول أكبر كليات القمة ..

ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ، كما يقولون ..

ومهما بذل والده العامل البسيط من جهد ، فلن يمكنه أبدًا تحمّل نفقات الدراسة ، فى كليات القمة ..

حتى مكافأة التفوّق ، لم تكن لتكفى أبدًا ؛ لأن المسئولين لم يدركوا بعد أن الزمن يتطوّر ، والاقتصاد يتغيّر ، والمكافأة التى كانت تكفى فيما مضى ، لم تعد تساوى ثمن بضع وريقات ، من أصغر مذكرة فى الكلية اليوم ..

وهكذا ، وعلى الرغم من طموحه ، كان لابد له أن يرضى بكلية نظرية ، ذات نفقات محدودة ..

نفقات يمكن لوالده المكافح احتمالها ..

وفى استسلام لقدره ، التحق بكلية أدبية ..

وحاول أن يطوّع طموحه للتعامل معها ، فراح يستذكر مقرراته فى اهتمام وحزم ، ويسعى للتفوق والتقدّم فى الكلية ..

وعبر سنوات الدراسة الأربع ، كان طموحه يربح المعركة دومًا ..

لقد تفوّق ..

وتفوّق ..

وتفوّق ..

وفى السنة النهائية ، حصل على شهادته بتقدير ممتاز ، يندر أن يحصل عليه أى طالب ، فى كلية مماثلة ..

وكانت فرحة والده طاغية ..

الحى كله ، ظل يرقص حتى صباح اليوم التالى ، احتفالاً بنجاح ابنه وتفوقه ، وحصوله على تقدير مرتفع ، يمنحه حق التعيين كمعيد فى الجامعة ..

ومع الوقت ، والترقى لم يلبث أن يصبح أستاذًا جامعيًا ، يشار إليه بالبنان ، ويزهو به والده وأشقاؤه ..

ولكن الحلم كان أجمل كثيرًا من عالم الواقع ..

ففى دهاليز الكلية ، كانت هناك أمور تدور ، لا علم له بها ..

ولا قبل له بمواجهتها ..

فلسبب ما ، أمكن تطويع اللوائح للتوافق معه ، لم توافق الكلية على تعيينه معيدًا بها ..

ربما لأنه من أصول اجتماعية متواضعة ..

أو لأن ابن أحد الأساتذة بالكلية ، كان يطمح إلى الوظيفة نفسها ..

أو للسببين معًا ..

المهم أنه لم يصبح معيدًا بالكلية ..

لم يفز بالمنصب والوظيفة ..

ولا بأية وظيفة أخرى ..

كل ما حدث ، هو أنه أصبح اسمًا إضافيًا ، فى قائمة البطالة ، والعاطلين عن العمل ..

انتهى من دراسته بتفوق ، وفعل كل المطلوب منه ، والآن لا يجد وظيفة واحدة ، تغنيه عن السؤال ، وتقيه وتقى أسرته من الجوع ..

وكان يمكنه أن يحتمل كل هذا ، لولا نظرة الحزن والأسى والإحباط ، التى تطلّ دومًا من عينى والده ..

النظرة ، التى جعلته يسعى للحصول على أى مصدر للدخل ..

مهما كل شأنه ..

وخلال عام كامل ، تنقّل بين عدة وظائف ، لا تحتاج أفضلها إلا لإجادة القراءة والكتابة ، على أكثر تقدير ..

وحصل على دخل للعيش ..

وربما لإعالة الأسرة أيضًا ..

ولكن هذا لم يمح نظرة الإحباط والأسى ، من عينى والده أبدًا ..

ولم يدر هو ماذا يفعل ؟!

أو أين يذهب ؟!

ثم جاء ذلك اليوم ، الذى طلب فيه والده منه أن يلملم أوراقه ، ثم اصطحبه معه إلى المصلحة ، التى يعمل فيها ، وقدّمه إلى رئيسه ، الذى وقّع بالموافقة على طلب وظيفة معد مسبقًا ..

وأصبح هو أخيرًا موظفًا رسميًا ، له راتب ثابت ، يكفى بالكاد للعيش الحاف ، وقليل من الملح ..

وكان عليه أن يواصل عمله الخارجى ، فى النصف الثانى من اليوم ..

ويواصل ..

ويواصل ..

وبعد ستة أشهر فحسب ، من توليه الوظيفة الرسمية ، رحل والده عن الحياة فى هدوء ، وكأنما أسلمه الراية ، وانتهى دوره فى الحياة ..

وبدأ هو مرحلة جديدة ..

ورحلة طويلة ..

رحلة استغرقت عمره كله ..

والتهمت شبابه ..

وطموحه ..

وأحلامه ..

لأربعين عامًا كاملة ..

وكعادته ، أدى واجبه على خير وجه ، ورعى أسرته ، وأمه ، وأشقاءه ، وسعى لاستكمال تعليمهم ..

ولتوظيفهم ..

وتزويجهم أيضًا ..

وخلال الرحلة ، نسى نفسه تمامًا ..

نسى أحلامه ، وطموحاته ، وحتى مشاعره ..

لم يرتبط أو يتزوّج أبدًا ..

أو يشعر حتى بمرور الوقت ..

حتى وصل إلى آخر الرحلة ..

إلى آخر الخط ..

فاليوم فقط ، وصلته رسالة مسجّلة مطبوعة ، تحمل اسم المؤسسة ، التى يعمل بها ، مع كلمات قصيرة أدهشته جدًا ..

وأزعجته للغاية ..

كلمات تنبئه بأنه قد وصل إلى آخر الخط ، وبلغ السن القانونية ..

سن الخروج إلى المعاش ..

الآن فقط ، انتهى مشوار العمر الطويل ..

أو هكذا يتصوّر ..

فقد وصل إلى السن القانونية للتقاعد ، إلا أنه لم يبلغ سن نهاية الأحلام والطموحات بعد ..

فمازال لديه الكثير مما يمكن أن يعطيه ..

والكثير جدًا ..

أمه ما زالت على قيد الحياة ، وتحتاج إلى رعايته وعنايته ..

وأشقاؤه وشقيقاته يطلبن معاونته واستشاراته دومًا ..

وأبناؤهم يذوبون عشقًا له ..

الرحلة لم تنته بعد إذن ..

والقطار لم يصل إلى آخر محطاته ..

وهذا يعنى أنه سيكمل مشواره ، بنفس الحب والعطاء والتفانى ..

وسيواصل رحلته ..

حتى آخر الخط ..

★ ★ ★

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب

ألغاز .. ألغاز !

(دراسة)

١ـ عالمنا ..

● مع ما بلغه العلم والتقدُّم التكنولوجي ، فى مطلع القرن الحادى والعشرين ، والذى كان فيما سبق هدفًا ، يتصوَّر الكل أنه غاية المنى ، ونهاية المطاف ، ودربًا من دروب الخيال ، الذى تطمح العقول إلى تحويله إلى حقائق محسوسة وملموسة ، تصور البعض ، من العامة بالطبع ، أن عالمنا ، مع اتساعه ، صار أشبه بكتاب مفتوح ، وبصفحات واضحة مقروءة ، ولم يعد لديه ما يخفيه ، عن عقول العلماء والباحثين الذين جابوا يابسته ، وبحاره ، ومحيطاته ، وطاروا فى سمائه ، وغاصوا فى أعماقه ، وسبروا أغواره ، وكشفوا أسراره ، وقوانينه ، وغوامضه ، وطوَّروا معارفهم وعلومهم ؛ ليصنعوا المعجزات العلمية ، التى كانت وما زالت تبهر العقول ، وتخطف القلوب ، حتى يومنا هذا ..

ومع عصر الكمبيوتر بالذات ، صار من الممكن كشف الكثير من الأمور ، التى كانت فيما مضى لغزًا مغلقًا ، ومنطقة مظلمة ، أمام كل النظريات والأبحاث ، والدراسات القديمة ..

وواصل العلم تطوّره أكثر ، وأكثر ، وأكثر ، واكتظت المكتبات ، وشبكات الإنترنت بآلاف الكتب التى تكشف لنا أدق أسرار الكوكب ، وأكثرها خصوصية وصعوبة ، وتشعَّبت العلوم ، والفنون ، و ...

ولكن كل هذا لم يشبع العقول بعد ..

فعلى الرغم من الكشوف المذهلة ، والتطورات المدهشة ، التى تتواكب بسرعة تقارب سرعة الصوت ، خلال العقد الأخير بالتحديد ، ما زالت فى عالمنا مناطق مظلمة ، وبقاع غامضة ، محيِّرة ، مقلقة ، لم يكشف العلم والعلماء أسرارها بعد ، بكل أجهزتهم ، وتكنولوجيتهم .. وجهودهم أيضًا ..

عالمنا إذن لم يكشف كل خباياه بعد ..

ما زالت لديه مناطق قوة وغموض ، تواصل تحفيز العقول ، واستنفارها ، وتحديها ، وإلهابها ، وكأنما يصرّ على أن يثبت دومًا أن جعبته لم ، ولن تنضب أبدًا ، مهما تطوَّر الإنسان ، ومهما تصوَّر أنه اقترب ، أو كاد من التباهى بقوته ، وسيطرته التامة على عالمه ..

وقد يتصوَّر البعض أن تلك البقاع الغامضة ، أو المناطق المظلمة تكمن فى بعض التحديات العلمية والتكنولوجية القديمة ، أو فى الظواهر العلمية المحيِّرة ، مثل الأطباق الطائرة ، ومثلث (برمودا) ، وأسطورة (أطلنطس) ، وغيرها ..

ولكن الواقع أن الغموض ، كل الغموض ، يكمن فينا نحن ..

فى البشر ..

وبالتحديد ، فى عقول البشر ..

لقد فحص العلماء أمخاخ البشر ، من الأطفال وحتى (ألبرت أينشتين) نفسه ، وتوصّلوا إلى الكثير من المعارف والنتائج بشأنها ، وقسموها إلى نصوص ، ومناطق ، وتلافيف ، وخلايا بيضاء ، ورمادية ، وجسم صنوبرى ، ومناطق للسمع ، والشم ، والرؤية ، والتفكير ، والكلام .. وحتى للأحلام ..

وعلى الرغم من هذا ، فمازال المخ البشرى يبهرهم .. ويحيرهم .. ويربكهم أيضًا ..

ومازال الكل يتساءل : أى قدر يمكن أن يبلغه العقل البشرى ؟!

بل أية معجزة تكمن ، فى أعمق أعماق أعماقه ؟!

هذا حتمًا مادار فى ذهن المدير العام ، لمؤسسة (راند) الأمريكية ، وهو يرفع حاجبيه فى دهشة ، لم تلبث أن تحوّلت إلى ذهول شديد ، وهو يقرأ فى إمعان ذلك التقرير ، الذى قدمه إليه أحد مستشاريه ، حول فكرة جديدة للاستفادة بما أطلق عليه المستشار اسم (أدب التنبؤ بالكوارث) !!

ولم يكن مرجع ذهول المدير العام للمؤسسة ، هو تلك التسمية العجيبة ، التى اختارها المستشار لتقريره ..

ولا حتى لذلك الأسلوب الجاف الثقيل ، الذى استخدمه فيه ..

ولكن الذى يستحق الذهول بالفعل ، كان وقائع التقرير نفسه ..

ويا لها من وقائع !!

وقبل أن نبدأ فى مطالعة ومراجعة التقرير ووقائعه ، دعونا نتعرّف أوّلاً ماهية مؤسسة (راند) هذه ..

والواقع أن تلك المؤسسة (RAND) ، ذات الاسم المقتضب القصير ، هى واحدة من أرفع مؤسسات الأبحاث العلمية والعسكرية ، فى الولايات المتحدة الأمريكية كلها ، وغالبًا ما تعهد إليها الحكومة الأمريكية ببعض الأبحاث ، ذات الطابع العلمى أو العسكرى ، أو بالدراسات شديدة الأهمية ، والسرية ، والخطورة ، مما فرض على المؤسسة نمطاً خاصًا ، وجدية يستحيل الحيدة عنها ، والتزامًا بالحقائق العلمية والتاريخية ، على نحو لا يمكن أن يتطرّق إليه الشك أبدًا ..

هذه هى مؤسسة (راند) ..

ولكن ماذا عن وقائع التقرير ؟!

الحقيقة أن ذلك التقرير لم يكن يحوى أسرارًا علمية أو عسكرية ، بل كان يحوى فقط بضع صفحات ، من رواية قديمة ..

وتقريرًا بحريًا رسميًا واحدًا ..

أما الرواية ، فهى واحدة من روايات الأديب الأمريكى المبدع (مورجان روبرتس) ، والتى لم تلق رواجًا شديدًا عند نشرها للمرة الأولى ، عام ١٨٩٨م ، وتحمل عنوان (فيتاليتى) ..

ورواية (فيتاليتى) هذه كانت تتحدّث عن سفينة عملاقة ، ابتكرها خيال (مورجان) ، ووصفها أيامها بأنه لا وجود لمثلها ،

فى أى عصر من العصور ، إذ يبلغ وزنها سبعين ألف طن ، ويصل طولها إلى مائتين وأربعين مترًا ، ولها محرك جبار ، مزوَّد بثلاث مراوح قوية عملاقة ، تمنحها سرعة لم تبلغها أية سفينة شحن أو ركاب قبلها .

وفى نهايات القرن التاسع عشر ، عندما صدرت الرواية ، وعلى الرغم من عدم رواجها ، على النحو الذى توقّعه ناشرها ، كانت شهادة ميلاد للأديب (مورجان روبرتس) ، رفعته إلى مصاف عظماء كتاب الخيال فى عصره ، إذ كان من العسير على العقول المحيطة به ، فى تلك الآونة ، تصوّر وجود مثل هذه السفينة العملاقة ، التى صارت اليوم مجرّد سفينة عادية ، قد تعجز عن بلوغ مرتبة البواخر السياحية الفاخرة والهائلة ، ذات النسق الحديث المتطوّر ..

وفى روايته ، لم يجد (مورجان) لسفينته العملاقة اسمًا أفضل من (تيتان) ، تيمنًا بعمالقة الأساطير القديمة ، وجعلها تحمل ثلاثة آلاف مسافر ، وتبدأ أولى رحلاتها عبر المحيط باحتفال هائل ، فى أوائل شهر أبريل ..

ولأنها رواية ، ولا بد أن تضم الجديد ، من الإثارة وفنون التشويق ، فقد تحدَّث (مورجان) عن كارثة تواجه سفينته العملاقة ، التى أحاط بها ضباب كثيف ، فى رحلتها الأولى ، لترتطم بعد هذا بجبل من الجليد ، و ...

وتغرق ..

ولأن الفكرة جديدة ومبهرة ، استقبل القرّاء رواية (مورجان) ، فى مزيج من الدهشة والإعجاب ، وبهرتهم تمامًا فكرة وجود سفينة عملاقة بهذا الحجم ، وأثارهم أن ينهار جبل تقتى مثلها ، أمام جبل جليدى واحد ..

وعلى الرغم من هذا ، لم تنجح الرواية كما ينبغى ..

لقد حقّقت انتشارًا محدودًا ، يعود إلى هجوم العديد من النقاد عليها ، وعلى فكرتها الخيالية ، واتهامهم كاتبها بالتخريف ، والإغراق فى الوهم والخيال ، وحتى ملّ القرّاء ، وتراجع انتشار الرواية ، لتفسح الطريق لروايات أخرى ، أكثر خيالاً وإثارة ، طوال أربعة عشر عامًا كاملة ..

وهنا يأتى دور التقرير البحرى ..

والتقرير الرسمى ، يتحدَّث عن سفينة عملاقة أخرى ..

ولكنها سفينة حقيقية هذه المرة ..

سفينة احتلّت صورها وأخبارها ماتشيتات وصفحات الصحف طويلاً ، منذ بدأ بناؤها ، وانتهى ، ولسنوات وسنوات بعدها ..

والمدهش أن تلك السفينة العملاقة الحقيقية ، التى بدأت أولى رحلاتها فى المحيط ، فى عام ١٩١٢م ، أى بعد أربعة عشر عامًا من نشر رواية (مورجان روبرتس) ، كانت تتشابه فى الكثير ، والكثير جدًا ، مع سفينته الوهمية ..

فهى أيضًا ، كانت تزن ما يقرب من سبعين ألف طن ..

وبالتحديد ، ستة وستين ألف طن ..

والعجيب أن طولها كان يبلغ أيضًا مائتين وثمانية وأربعين مترًا !!

ومحركها كان يتكوّن من ثلاث مراوح عملاقة قوية !!

بل وبدأت رحلتها فى أبريل ، وعلى متنها ثلاثة آلاف مسافر تقريبًا !!

كل هذا ، ولم ينتبه مخلوق واحد إلى التشابه الشديد ، والمذهل ، بين تلك السفينة ، وسفينة رواية (مورجان) !!

ربما بسبب تراجع مبيعات روايته (فيتاليتى) ، وانحسار الأضواء عنها أو هى المصادفة !

أو القدر !

من يدرى ؟!

ولكن تلك السفينة الحقيقية كانت تحمل اسمًا ، يقترب كثيرًا من الاسم المبتكر ، الذى منحه هو لسفينته الوهمية ..

كانت تحمل اسم (تيتانيك) !

وكان تشابهًا مدهشًا ..

ومخيفًا .

* * *

٢ ـ الحقيقة .. والخيال ..

● امتلأت الصحف الأوروبية والأمريكية كلها ، فى أبريل ١٩١٢م ، بأخبار تلك السفينة العملاقة (تيتانيك) ، التى قيل عنها : إنها أقوى سفينة صنعتها عقول وقريحة وسواعد وميكنة البشر ، وراح الكل يترقّب ويتابع أخبار رحلتها الأولى ، التى ستبدأ بعد أيام ، لتشق عباب المحيط ، كجبل من الزهو التقنى البشرى ، معلنة بدء جيل جديد ، من سيطرة البشر على البحار والمحيطات ..

ووسط الاحتفالات الضخمة ، والأخبار العظيمة ، وانبهار الكل بالحدث العملاق القادم ، نسى الكل رواية (فيتاليتى) ، التى صدرت منذ أربعة عشر عامًا ، لمؤلفها (مورجان روبرتس) ، والتى تحدثت عن سفينة عملاقة أخرى ، لها اسم (تيتان) ، خرجت فى رحلتها الأولى ، لتغرق فى قلب المحيط ، بعد ارتطامها بجبل من الجليد ..

نسى الكل هذا ، وتذكروا موعد انطلاق (تيتانيك) ، فى أولى رحلاتها ، وعلى متنها ثلاثة آلاف مسافر ، تملأ الثقة قلوبهم جميعًا ، وقلوب قبطانها ، وضباطها وبحارتها ، وحتى مهندسيها ومالكها ، الذين أجمعوا على أنه من المستحيل أن تغرق سفينة عظيمة ، هائلة ، عملاقة كهذه ..

فهذا بالضبط ما أعلنته الشركة المالكة للسفينة (تيتانيك) ..

بل ، لقد بلغ الزهو والغرور بأحد صانعيها ، إلى القول بأنه حتى السماء نفسها ، لا يمكنها أن تغرق (تيتانيك) ..

ولقد حاولتُ تهذيب العبارة السابقة ، بأقصى قدر ممكن ، عندما عجزت عن نقل منطوقها الحقيقى !

المهم أن (تيتانيك) قد بدأت رحلتها هائلة ، عملاقة ، قوية ، تمامًا كما فعلت سفينة رواية (مورجان) القديمة ..

ولعدة أيام ، سارت رحلة (تيتانيك) على ما يرام ، وبدا لركابها أنهم يعيشون أسعد أيام حياتهم ، ويقطعون أجمل وأمتع رحلاتهم على الإطلاق ..

ثم بدأت الأحداث ..

وبنفس الترتيب ، الذى جاء فى رواية (مورجان) ..

تكاثف الضباب ، وراح يحيط بالسفينة ، حتى بدت وكأنها تسير وسط السحب ، وقد انعدمت الرؤية من حولها تمامًا ..

وعلى الرغم من خطورة الموقف ودقته ، ترك القبطان كابينة القيادة ، وذهب ليتناول العشاء فى صالة الركاب ، ويوزع ابتساماته الواثقة على الجميع ، ويستضيف بعضهم على مائدته ، تاركًا القيادة لضابطه الأوّل ، الذى حاول بقدر جهده أن يقود السفينة العملاقة ، وسط الضباب الكثيف ، و ...

وفجأة ، ظهر الجبل الجليدى الضخم أمام السفينة ..

برز فجأة ، وبغتة ، من وسط الضباب الكثيف ، كما لو أنه قد نبت من العدم ، أو جاء من الفراغ ..

تمامًا كما حدث فى رواية (مورجان) !

وعلى الرغم من أن الطاقم كله من المحترفين القدامى ، اللائقين لقيادة سفينة عملاقة كهذه ، أى أن بروز العملاق الجليدى أمامهم بغتة ، أصابهم بذعر شديد ،، فارتبكت مناوراتهم لتفاديه ، و ...

وحدث الارتطام ..

كانت مفاجأة عنيفة للجميع ، وبالذات للقبطان ، الذى سقط عن مقعده ، مع عنف الصدمة ، ثم هرع إلى قمرة القيادة ، محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

ولكن محال ..

لقد تجاوزت الإصابة كل التوقعات ، وبدأت (تيتانيك) تغرق ، فى العاشر من أبريل ، عام ١٩١٢م ..

ومع بدء غرقها ، وبدء محاولات النجاة منها ، بدا وكأن الجميع يتصرفون ، على نفس النمط والوصف ، اللذين تضمنتهما رواية (مورجان) ..

وفى تطابق مدهش ..

ففى الرواية والواقع ، كان عدد زوارق النجاة يقل كثيرًا عن عدد ركاب السفينة ، وكأنما لم يكن هناك من يتوقَّع غرقها بالفعل ..

حتى سترات ، النجاة ، كانت أقل مما ينبغى بكثير ..

وفى الحقيقة والخيال ،، تم التركيز على إنقاذ ركاب الدرجة الأولى أولاً ، على حساب حياة ركاب الدرجة الثالثة ، وكأنما يحدّد الثراء مصير المرء أيضًا ..

وحتى تفاصيل الغرق ، وانقسام السفينة إلى نصفين ، وغوصها فى الأعماق ، وموت معظم الناجين فى المياه المثلجة ، كلها تطابقت ، فى أحداث الرواية ، وفى عالم الواقع معًا ..

وهذا ما تضمّنه تقرير مستشار المدير العام لمؤسسة (راند) ..

ولقد ظل المدير صامتًا مبهورًا ، مبهوتًا ، مندهشًا ، يحدّق فى التقرير طويلاً ، بعد أن انتهى من قراءته ، ثم لم يلبث أن هب من مقعده ، واندفع إلى حجرة مستشاره ، بدلاً من أن يدعوه إليها ، واقتحمها فى عنف ، وهو يسأله فى انفعال ، عما إذا كان واثقًا ، من أن كل كلمة وردت فى تقريره صحيحة !

والواقع أن المدير لم يكن بحاجة إلى إلقاء مثل هذا السؤال ، فهو يعلم جيّدًا أن سمة التعامل فى المؤسسة هى الصدق ، وتحرى الدقة الشديدة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد انتفض جسده كله فى حماس ، عندما أجابه مستشاره الفنى بالإيجاب ..

فقد قرأ معجزة حقيقية فى ذلك التقرير ..

وعلى الفور ، أصدر المدير أوامره ، بشراء كل الروايات ، التى تحوى أخبار كوارث وهمية ، ابتدعتها عقول الأدباء ، ودراستها على نحو جاد مستفيض ؛ للبحث عن أية تشابهات محتملة ، بينها وبين كوارث حقيقية ، ماضية أو مستقبلية ..

وفى رأيه ، كانت هذه وسيلة مثلى ، للتعامل مع أية كوارث مستقبلية ، حتى ولو تجاوزت حدود العقل والمنطق ..

وعندما عاد إلى مكتبه ، راح المدير يقرأ تقرير مستشاره مرة ثانية ..

وثالثة .. ورابعة ..

وفى كل مرة ، كان يلقى على نفسه عشرات التساؤلات الحائرة !

كيف استطاع عقل (مورجان روبرتس) وصف حادثة مستقبلية ، بكل هذه الدقة ؟!

كيف أمكنه التنبؤ بما حدث ؟!

أهى قدرة خاصة ، يمتلكها (مورجان) وحده ، أم أن أى إنسان عادى يمكن أن يمتلك هذه المقدرة ؟!

وبالطبع لم يحصل المدير على أية أجوبة شافية لأسئلته ، حتى هذه اللحظة ، فبوسيلة ما ، استطاع (مورجان) قراءة المستقبل ، وهو يكتب روايته ، أو أن الوحى الذى سقط عليه ، لحظتها ، كان وحيًا من المستقبل ..

أو ربما هى موهبة جديدة بين الأدباء ، تكمن فى جزء غامض خفى من أجسادهم الهشة ..

فى العقل ..

ذلك اللغز الكبير ..

جدًا ..

اللغز الذى لا يتوقف عند التنبؤ بالأحداث المستقبلية وحدها ، ولكنه يمتد إلى ما هو أبعد بكثير من الحدود ..

كل الحدود ..

فلو تركنا (مورجان) وروايته ، التى تطابقت على نحو مذهل مع الواقع ، وانتقلنا من (أوروبا) إلى (آسيا) ، وبالتحديد إلى (الهند) ، أم العجائب ، كما يطلقون عليها ، فسنجد أمامنا لغزًا كبيرًا آخر ..

لغز الطفل الهندى (برامود شارما) ..

و(برامود) هذا لم يكن أبدًا طفلاً غير عادى ، فى أية مرحلة من مراحل طفولته الأولى ؛ فقد وُلِدَ فى مقاطعة (باورن) ، فى الرابع عشر من مارس ، عام ١٩٤٤م ، وكانت ولادته طبيعية للغاية ، واحتلّ فى سجلات المواليد موقع الطفل الثانى ، للأستاذ المتواضع (بانكيلال شارما) ، المدرس بمعهد عادى متوسط ..

وكأى طفل بسيط ، فى أسرة أكثر بساطة ، نشأ (برامود) نشأة عادية ، وراح ينمو ، ويحبو ، ويمشى ، ويتحدّث ، وتبرز أسنانه ، كما يحدث لأى طفل عادى ..

حتى بلغ العام الثالث من عمره ..

وفى عيد ميلاده الثالث بالتحديد ، والذى لم تحتفل به الأسرة فى الواقع ، تبدّل أمر (برامود) فجأة ، ورفض الاستجابة لمن يناديه ، أو حتى التحدّث إليه ، وتجاهل اسمه تمامًا ، وكأنما لم يعرفه أبدًا من قبل ..

وكان من الطبيعى أن يفزع والده المدرس البسيط ، وأن يحاول معرفة ما أصاب ابنه ، وما يدفعه إلى التعامل على هذا النحو العجيب ..

وفى حضور الأم ، استدعى الأستاذ (بانكيلال شارما) ابنه الثانى ، وطيب من خاطره ، وسأله عن سر ما أصابه ..

وجاء الجواب مفاجئًا ..

بل ومخيفًا ومذهلاً ..

إلى أقصى حد .

* * *

٣ـ أم العجائب ..

● لم يدر أحد أبدًا ما الذى أصاب ذلك الطفل الهندى (برامود شارما) ، عندما بلغ الثالثة من عمره ، فى مارس عام ١٩٤٧م !!

ففجأة ، ودون سابق إنذار ، راح يرفض تمامًا هويته الأصلية ، ويصرّ على أنه شخص آخر تمامًا ..

شخص يُدعى (بارا ماتندا) ، كان يقيم فى (مراد أباد) قديمًا ..

وكانت مفاجأة مذهلة للجميع ..

مفاجأة ، جعلت عيونهم تتسع فى دهشة ، وقلوبهم تخفق فى وجل ، وعقولهم ترفض وتستنكر فى عنف ..

ومن كل العيون ، أطل شك يمتزج بالخوف ..

ليس لأن الأمر عجيبًا ومرفوضًا ، فى العقيدة الهندية ، إذ أن بعضهم هناك يؤمن تمامًا بما يسميه فريق من العلماء بنظرية تناسخ الأرواح ، ولكن لأن العقيدة نفسها تقول : إن الشخص الذى يأتى من حياة سابقة ، لا يعمر كثيرًا وطويلاً ..

ولهذا رفض والدا (برامود) مجرّد مناقشة الأمر ..

إلا أن هذا لم يغيّر شيئًا ، من اعتقاد الطفل وإصراره ، بل ضاعف من حديثه حول (مراد أباد) ، وحياته السابقة فيها ، وأسرته ، وراح يقارن بينها وبين حياته العادية فى مقاطعة (باورن) ..

وتضاعف رعب الأبوين أكثر وأكثر ، فعلى الرغم من أن عقيدتهم لا تعارض هذا ، إلا أن سماع حدوثه لدى الآخرين شىء ، وحدوثه وسط الأسرة شىء آخر تمامًا ..

ومع تداعى الأحداث ، استعاد الكل قصة قديمة شائعة ، عن امرأة هندية ، تدعى (شانتى ديفى) ، مازالت تعمل وتقيم فى (نيودلهى) ، وتصرّ على أنها عاشت حياة سابقة فى (موترا) ..

وقبل أن تهدأ الأمور ، وينجح الكل فى تجاهل هذا ، والتعايش معه فى سلام ، فاجأ (برامود) والده ذات يوم ، بأنه يريد أن يعود إلى مسقط رأسه القديم ..

إلى (مراد أباد) ..

وعقدت الدهشة لسان الأستاذ البسيط ، ولم ينبس ببنت شفة ، ووقف يحدّق فى وجه ابنه ، الذى بدا رصينًا حاسمًا ، على نحو لا يتفق مع سنوات عمره القليلة ، وهو يؤكد رغبته فى العودة إلى منزله السابق ، وإلى متجره ، الذى يحوى العديد من البضائع والسلع ..

وفى ثقة وسرعة ، راح يعدد لوالده عشرات الأصناف والسلع ، التى تتوافر فى متجر (مراد أباد) ، ولا تتوافر عادة فى (باورن) ، وعينا الأب تزدادان اتساعًا ، ووجهه الهلع يزداد شحوبًا ورعبًا ، ثم لم يلبث أن أعلن ، وبكل الحزم والصرامة ، أنه لن يذهب أبدًا إلى (مراد أباد) ..

وهنا أخذ الطفل يبكى ، ويتوسّل ، ويستعين بالأقارب والأصدقاء ، الذين حاولوا التدخل ؛ لإقناع الأستاذ وزوجته باصطحاب الطفل إلى (مراد أباد) ؛ للتأكّد من روايته على الأقل ..

ولكن كل هذا لم يجد نفعًا ، وظل (باتكيلال) على رفضه وإصراره بشدة ..

إلا أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد ..

فذات يوم ، عاد (برامود) إلى منزله ، مؤكّدًا أنه عاد على التو من مدينة (ساهارا نبور) ، وأنه قد عرف أخيرًا السبب فى وفاته ، ووصفه بأنه الماء الساخن ، الذى أصاب معدته ، ثم هزّ رأسه فى وقار ناضج ، ليضيف أن هذا هو سبب قدومه إلى (باورن) .

وفى هذه المرة ، راح الطفل يصف حياته السابقة بدقة ، ويقول : إنه كان أبًا لأربعة أبناء وابنة واحدة ، وزوج لامرأة بدينة ، مازالت تعيش فى (مراد أباد) ، ثم راح يبكى فى حرارة ، ويتوسّل إلى والده أن يسافر ، ليرى عائلته ، ومنزله ، ومتجره ، وليثبت صحة روايته ..

وهنا ، لم يعد هناك مجال للتردُّد ، واستسلم الأب تمامًا ..

وفى الخامس عشر من أغسطس ١٩٤٩م ، وبعد خمسة أشهر من بلوغه عامه الخامس ، سافر (برامود) ووالده ، مع بعض الأقارب إلى (مراد أباد) ؛ لحسم هذه المسألة تمامًا ..

ولكن ما حدث هناك كان مذهلاً بحق ..

فعلى الرغم من أنها أوّل مرة ، يزور فيها (برامود) (مراد أباد) بطبيعة الحال ، إلا أنه لم يكد يصل إليها ، حتى شملته سعادة غامرة ، وأخبر الجميع أنه سيقودهم بنفسه هناك ..

ودون لمحة واحدة من التردُّد ، قادهم إلى متجره ، والتقى بأخوته الذين يديرونه ، وتعرّفهم جميعًا بلا استثناء ، وتحدّث عن دعابات قديمة بينه وبينهم ، ولا يمكن أن يعرفها سواهم ، وسوى شقيقهم الراحل (بارامنندا) ..

وبعد هذا ، اتجه (برامود) إلى مصنع المياه الغازية ، الذى كان يديره قديمًا ، وشرح لمرافقيه كيف تعمل آلاته ، وكيف تم استيرادها وتشغيلها ، على نحو يستحيل أن يفهمه أو يستوعبه طفل فى مثل عمره ..

ثم كان اللقاء الأكثر إثارة ..

لقاء (برامود) بعائلة (بارامنندا) ..

لقد تعرّف جميع أفراد العائلة واحدًا واحدًا ، وتحدّث معهم عن أمور وموضوعات حميمة وخاصة جدًا ، يستحيل أن يعرفها شخص غريب ، وأجاب كل الأسئلة التى طرحت عليه ، ووصف البيت بكل تفاصيله ، قبل أن ينهض لرؤيته ، والتجوّل فيه بشوق ..

بل وتعرّف على كل التغيرات ، التى طرأت عليه ، منذ وفاة (بارامنندا) ، وإلى الحجرتين اللتين أضيفتا إليه ، و ...

وانهارت أسرة (بارامنندا) تمامًا ..

لقد أذهلهم تمامًا ما رأوه ، وما فعله (برامود) ، وتعرّفوا أسلوبه ، وحديثه ، ولزماته ..

وفى لحظة العودة ، تعلّق الجميع به ، وراح الكل يبكى فى مرارة ، حتى إن الطفل قد صرخ ، وهم ينتزعونه من عائلة (بارامنندا) انتزاعًا ، طالبًا البقاء معهم ، باعتبارهم أسرته الفعلية ..

ومع رحيله ، انهارت عائلة (بارامنندا) ، وكأنها فقدت عائلها للمرة الثانية وبعدها عاش (برامود) مع والديه ، فى مدينة (بساولى) فى (باورن) ، وراح يبذل قصارى جهده لنسيان حياته السابقة ، وليحيا باعتباره (برامود) ، وليس (بارامنندا) ، الذى مات فى التاسعة والثلاثين من عمره ، فى مدينة (مراد أباد) ، فى التاسع من مايو ١٩٤٣م ، وقبل مولده هو بستة أيام فحسب ..

ولكن أحدًا لم يمنح (برامود) فرصة النسيان ، إذ أنهم جميعًا يصرون على معرفة وسماع قصته ، والتفكير طوال الوقت فى تلك الرواية ..

أو فى ذلك اللغز المذهل ..

والحديث هنا لا يتسع لمناقشة فكرة تناسخ الأرواح نفسها ، أو اتفاقها وتعارضها مع العلم ، والعقل ، والمنطق ، والعقيدة ، ولكنه حديث عن واقعة مسجّلة ، حار فيها الكل ، وعن لغز آخر من ألغاز عالمنا ، لم تصل إلى حله أبدًا ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

لذا دعونا نتركه خلفنا ، وننطلق منه ، عائدين إلى (أوروبا) ، وإلى مدينة (ويندسور) البريطانية بالتحديد ..

فهناك ، سنستعيد معًا تلك الحكمة القديمة الشهيرة ، التى تؤكّد أن معظم النيران تندلع ، من مستصغر الشرر ..

وهذه العبارة صحيحة تمامًا ، بالنسبة لكل نيران تشتعل لسبب منطقى ، بوساطة عود ثقاب ، أو ماس كهربى ، أو تركيز أشعة الشمس ، أو حتى احتكاك حجرين ببعضهما ..

إلا نيران نادى (دومينون) ..

فتلك النيران بالذات ، كانت تتبع قاعدة أخرى تمامًا ..

قاعدة تقول : إن النيران يمكن أن تشتعل بسبب (اللاسبب) !!

نعم .. إنك لم تخطئ قراءة الكلمة بين القوسين ..

فالنيران هناك كانت تشتعل بالفعل ، بلا سبب ..

ونادى (دومينون) هذا نادى ريفى للجولف ، يقع خارج مدينة (ويندسور) البريطانية ، وترتاده فئة خاصة من البريطانيين ، الذين يحمل كل منهم لقبًا براقًا فريدًا وسط أقرانه ، والذين لم ينقطع تردُّدهم عليه يومًا واحدًا ، حتى فى ذروة اشتعال الحرب العالمية الثانية ، فى تلك الفترة التى بدأت فيها الأحداث ، فى ديسمبر ١٩٤١م ..

فبينما تدك الطائرات الألمانية النازية (لندن) دكًا ، قضى لوردات (ويندسور) يومهم فى ملاعب الجولف ، وتشاركوا جلسات الاسترخاء والمناقشة ، مع شاى الخامسة ، فى قاعدة النادى ، ثم اشتركوا فى لعبة ورق ، حتى تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل ، واقتربت من الواحدة صباحًا ..

وعندئذ ، نهض أحد رواد النادى ، استعدادًا للعودة إلى منزله ، وألقى التحية على (نيكولاس هوايت) ، صاحب ومدير النادى ، قبل أن يتجه لإحضار معطفه ، من حجرة حفظ المعاطف ..

وغاب الرجل بضع لحظات داخل الحجرة ، ثم فوجئ به (هوايت) يعدو خارجها منزعجًا ، وهو يهتف بأنه شاهد بعينيه معجزة ..

معجزة مخيفة .

* * *

٤ـ النيـــران ..

● فجأة ، ودون سابق إنذار ، فوجئ (نيكولاس هوايت) ، صاحب ومدير نادى (دومينون) للجولف ، بأحد رواد النادى يعدو مذعورًا ، خارج حجرة حفظ المعاطف ، وهو يهتف بأن ورقة قد اشتعلت أمامه بغتة ، فى قلب الحجرة ، دون أى سبب منطقى ..

ولبعض الوقت ، تصوّر (هوايت) أن الرجل قد أشعل الورقة بطريق الخطأ ، ولكنه يدّعى اشتعالها التلقائى المباغت ، حتى لا يتحمّل مسئولية ما قد يسفر عنه هذا ، لذا فقد حمل أسطوانة إطفاء الحريق بنفسه ، وأسرع بها إلى حجرة حفظ المعاطف ، قبل أن تمتد ألسنة اللهب إلى معاطف الرواد ..

وقبل أن يبلغ (هوايت) الحجرة ، فوجئ بأحد السقاة يصرخ : أن النيران قد اشتعلت بغتة دون سبب ، فى أحد مفارش المائدة ..

وأسرع (هوايت) يطلق السائل الرغوى على المائدة المشتعلة ، ثم استدار ليعود إلى حجرة المعاطف ، ولكن ساق آخر صرخ يعلن اشتعال النيران ، فى مفرش مائدة أخرى بغتة ..

وأيضًا دون سبب ..

وأمام عينى مستر (هوايت) ، الذاهلتين المذعورتين ، وعيون موظفيه وسقاته ، ورواد النادى أيضًا ، راحت مفارش الموائد تشتعل ، واحدًا بعد الآخر ، دون سبب منطقى أو مفهوم ..

وفى ذعر محموم ، وبأقصى جهده وإرادته ، راح (هوايت) يسيطر على مشاعره ، ويقاوم ذعره وذهوله ، ويأمر رجاله بإلقاء المياه ، الموضوعة فى دوارق الشرب ، فوق المفارش المشتعلة ..

وأطاع الرجال أوامره ، وراحوا يعدون من مائدة إلى أخرى ، حتى تقطعت أنفاسهم ، وتعالى لهاثهم ، وتعاظم انفعالهم ..

وانطفأت النيران ..

ولأخيراً ، وهنا فقط ، وجد مستر (هوايت) الفرصة ، ليعدو نحو حجرة المعاطف ، ويطلق السائل الرغوى على النيران الممدودة هناك ...

وبعدها ألقى جسده على أقرب مقعد إليه ..

وفى حيرة ، تمتزج بالكثير من الذهول ، تساءل الرجل عن سر ما يحدث فى ناديه ، وقفز ذهنه ، على الرغم منه ، إلى لعبة الجاسوسية والتدمير ، التى تتوافق مع الصراع البريطانى النازى العنيف ، وتصور بضع لحظات أنه ضحية عملية تخريب مقصودة ..

ولكن الفكرة نفسها فجّرت فى أعماقه مزيداً من الحيرة والدهشة !!

فمن كل النواحى ، لم يكن ناديه يشبه ، أو يحمل حتى أدنى احتمال ، لكونه هدفًا عسكريًا ، يستحق التدمير ، أو حتى يحتمل تجربة عسكرية شيطانية كهذه ..

ماذا يحدث إذن ؟!

وقبل حتى أن يفكرّ فى سؤاله ، انتزعته صرخات قوية من مطبخ النادى ، فوثب من مقعده ، وركض بكل قوته نحو المطبخ ، ولم يكد يبلغه ، حتى تراجع فى عنف ، كمن صعقه تيار كهربى عنيف ..

لقد كان يتوقع ما رآه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد هوى قلبه بين قدميه بمنتهى العنف لرؤيته ..

فكل مناشف المطبخ ، بلا استثناء ، كانت تندلع منها ألسنة اللهب .

وعلى الرغم من ذهولهم الشديد ، أسرع (هوايت) ورجاله ينتزعون المناشف ، ويلقونها وسط المطبخ ، ويطلقون عليها السائل الرغوى ..

وفى هذه المرة ، وعلى الرغم من انطفاء النيران ، أمر (هوايت) رجاله بملء كل ما لديهم من أوعية بالماء ، وهو يشعر أن لعبة الاشتعال الغامض هذه لم تنته بعد ، وأنها ستتواصل حتمًا ..

ولأنه رجل عملى أنهكه التعب ، أرهقه الغموض والذهول ، قرّر (هوايت) أن يستعين هذه المرة بالمحترفين ، من رجال الإطفاء ، وصعد إلى الطابق الثانى للاتصال بهم ، حيث مسكنه ومكتبه الخاص ..

وفى مكتبه ، أخرج دليل الهاتف ، و ...

واشتعل الدليل فجأة بين أصابعه ..

وبكل الذعر ، ألقى (هوايت) دليل الهاتف أرضًا ، وراح يضربه بقدميه ، فى محاولة لإطفاء النيران ، ولم يكد ينجح فى هذا ، حتى سمع زوجته تناديه فى اضطراب وقد أقلقها الهرج والمرج ، اللذين شملا النادى أسفلها ..

وأسرع (هوايت) إلى حجرة نومه ، ولم يكد يبلغها ، حتى اشتعلت النيران فى ستائر الحجرة فجأة ، وصرخت الزوجة بكل رعب الدنيا ..

وكانت ليلة ليلاء ..

الكل يصرخ ، ويعدو ، من مكان إلى آخر ، ومن حجرة إلى حجرة ، والنيران تشتعل ، فى تتابع مذهل مخيف ، والكل يعدو خلفها ، ويحمل أوعية المياه ، وأسطوانات الإطفاء ، ويلهثون من فرط الجهد ، والذهول ، والذعر ، والحيرة ..

وعندما وصل رجال الإطفاء ، فى الثانية والربع صباحًا ، كان (هوايت) ورجاله قد أخمدوا ثلاثة وأربعين حريقًا بالفعل ..

وكانت قواهم قد خارت تمامًا ..

ومع انهيارهم ، روى الرجال ما حدث لفريق الإطفاء ، الذى انتقلت إليه حيرتهم ودهشتهم ، وأطلت من عيون أفراده علامات الاستنكار والتكذيب ، على الرغم من السمعة العطرة لمستر (هوايت) ، واتفاق الجميع على رواية واحدة ..

وبسرعة ، حضر إلى المكان خبير شركة التأمين ؛ لتقرير الخسائر ، وتقديرها ، وتحديد التعويض المناسب لها ..

وفى دهشة وإصرار ، بل وغضب أيضًا ، رفض خبير شركة التأمين تمامًا تصديق قصة (هوايت) ورجاله ، خاصة وأن قائد رجال الإطفاء أبدى تشككه الشديد فى هذا الأمر ، الذى لم ير له مثيلاً ، فى عمره كله ..

وفى استماتة ، راح (هوايت) يبذل أقصى جهده ؛ لإقناع الجميع بصحة ما حدث ، فى حين انهمك رجاله فى تنظيف المكان ، و ...

وفجأة ، وأمام عيون الجميع ، اشتعلت النيران فى مكنسة أحد الرجال بغتة ، ودون أى سبب معلوم ..

وفغر قائد فريق الإطفاء فاه فى دهشة ..

واتسعت عينا خبير التأمين فى ذهول ..

واكتظ المكان ، فى الصباح التالى ، بعشرات من الخبراء والباحثين ، من كل الاتجاهات ..

واستمع الجميع إلى شهادة (هوايت) ، وزوجته ، وموظفيه ، ورواد ناديه أيضًا ..

وتم تسجيل الواقعة ..

وحصل (نيكولاس هوايت) على قيمة التأمين ..

وكان هذا اعترافًا من شركة التأمين بصحة ما حدث ، وإن ظل خبراؤها طويلاً يدرسون الأمر ، ويفحصونه ويمحصونه ، فى محاولة منهم لحل لغز آخر من الألغاز ..

ألغاز عالمنا العجيب ..

ومن (إنجلترا) ، فى قلب الحرب العالمية الثانية ، دعونا ننطلق عبر المحيط إلى القارة الجديدة ..

إلى الولايات المتحدة الأمريكية ..

وبالتحديد ، إلى مدينة (شارلوت) ، حيث يعمل ويقيم (هيوارد ويلار) ، المذيع المعروف ..

وإلى ليلة العاشر من يونيو عام ١٩٦٢م بالتحديد ..

ولاتعود أهمية التاريخ هنا إلى أن (هيوارد) قد أجرى فيه حديثًا إذاعيًا ممتازًا ، نال رضا واستحسان الجميع ، ولا إلى أنه قد حصل فيه على ترقية ، أو علاوة ، أو حتى ابتسامة من رئيسه المباشر ..

بل تعود أهميته إلى أنه قد تلقى فيه رسالة !

نعم رسالة ..

وقبل أن يدهشكم الأمر ، أو يثير حيرتكم واستنكاركم ، ودعونا نشرح الأمر كله منذ البداية ..

ففى ذلك اليوم ، انتهى (هيوارد) من عمله ، فى دار الإذاعة المحلية للمدينة ، وعاد إلى منزله قبيل منتصف الليل ببضع دقائق ، فتناول طعام العشاء مع زوجته ، وارتدى منامته ، وذهب إلى فراشه ؛ بنفس الروتين اليومى ، الذى اعتاده منذ سنوات ..

وفى هدوء ، استلقى (هيوارد) فى فراشه ، ورقدت إلى جواره زوجته ، وسألته عن يومه فى العمل ، و ...

وفجأة ، تجمَّد (هيوارد) فى مكانه ..

تجمَّد ، وبدا لحظة أشبه بتمثال من الشمع لرجل مذعور ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، وانفغر فاه ، وارتسم الهلع على كل خلجة من خلجاته ..

ففى تلك اللحظة ، كان (هيوارد) يتلقَّى الرسالة ..

أخطر رسالة فى حياته ..

كلها ..

* * *

٥ ـ النجـــــدة ..

● لم تدر زوجة (هيوارد ويـلار) ، مذيـع إذاعـة (شـارلوت) الشهير ، ما الذى أصاب زوجها ، فى منتصف تلك الليلة ، عندمـا تجمّد فى مكانه بغتة ، وحمل وجهه كل ذعر الدنيا ، قبل أن يلتفت إليها ، ويسألها عما إذا كانت قد سمعت ذلك الصوت ، الذى سمعه فى وضوح .

وعندما سألته زوجته (بات) عما يعنيه ، أجابهـا ، وقد حلّت الحيرة فى ملامحه محل الذعر ، بأنه قد سمع صوت حادثـة سير عنيفة ..

واندهشت الزوجة بشدة ؛ فهى لم تسمع شيئًا علـى الإطلاق ، ثم إن منزلهما يقع فى منطقة هادئة ، لم تحـدث فيهـا حادثـة سير واحدة ، منذ اختراع السيارة ، وتساءلت فى أعماقها عما إذا كـان يعانى من هذيـان ، ناشئ عن إرهـاق شديد ، إلا أن (هيـوارد) نهض من فراشه بالفعل ، وراح يرتـدى ثيابـه علـى عجل ، وهـو يكرّر روايته ، ويصرّ على الخروج لاستطلاع الأمر ..

وبقلب مرتجف ، فكّرت (بات) فى الاتصال بطبيبهما الخاص ، خشية أن تكون حالـة (هيـوارد) شديدة الخطـورة ، إلا أنـه لـم يمهلها الوقت لهذا ، فقد هبط بسرعة إلى سيارته ، قبل حتـى أن تتخذ قرارها ، وانطلق بها بعيدًا ..

فبالنسبة إليه ، كان الأمر محيرًا أكثر منها بألف مرة ..

إنه لم يخطئ أبدًا ..

لقد سمع صوت اصطدام السيارة فى وضوح ، وعلى الرغم من هذا ، لم يجد سيارة واحدة تتحرّك ، عندما غادر البيت ..

وهو واثق مما سمعه ..

واثق تمام الثقة ..

وعندما انطلق (هيوارد) بسيارته ، لم يكن يدرى إلى أين يتجه ..

ولأن منزله يقع عند منطقة ، تتفرع منهـا عدة طرق ، كـان عليه أن يتخذ قراره باختيـار الطريـق الصحيـح ، الـذى بـدا وكأنـه مدفوع إليه ، لسبب لم يستطع فهمه ..

ولم يحاول مقاومته أيضًا ..

وبلا تردُد ، وبثقة لم يدر من أين حصل عليها ، انطلق مباشرة إلى شـارع (بارك) ، وعندما بلـغ تقـاطع (وودلون) ، انحرف يمينًـا ، ليهبط التل فى ثقة ، وكأنه يعلم مسبقًا ، إلى أين يتجه بالضبط ..

وعندما بلغ موقع تجمع مراكب صيد الجمبرى ، وجد نفسـه ، وبنفس الثقة العجيبة ، يتخذ طريق (مونتفور درايف) ، ويقطـع ستين مترًا فحسب ، ثم يتوقف فجأة ، فى نقطة بعينها ..

وهناك ، فى تلك النقطة بالتحديد ، وحيث لا يوجد أى شىء واضح ، أو أية علامات مميزّة ، شعر بضرورة الخروج عن الطريق الرئيسى ..

ومجنون هو ، من يفعل هذا ، فى منطقة كهذه ، فى الواحدة صباحًا ..

(هيوارد) العاقل ، كان يعرف هذا جيدًا ..

أما (هيوارد) ، الذى يقود سيارته ، فى تلك الساعة ، فلم يكن باستطاعته ـ لسبب ما ـ مقاومة هذه الرغبة أبدًا ..

لذا ، فقد انحرف يمينًا ، وخرج عن الطريق ، واتجه مباشرة نحو شجرة ضخمة ، ترتفع وسط طريق رملى ، يمتدّ إلى ما لا نهاية ، وكأنما تسيّره قوة خفية غامضة ، و ....

وهناك ، رأى السيارة ..

رآها فجأة ، على أضواء مصابيح سيارته ، فضغط كوابحها فى قوة ، وتوقّف إلى جوار تلك السيارة ، التى ارتطمت مقدمتها بعمود معدنى ، على مقربة من جذع الشجرة ، وكان الارتطام من العنف ، حتى إنه انتزع محركها ، ودفعه إلى حيث مقعدها الأمامى ..

هكذا بدت السيارة المصابة ، التى توقف (هيوارد) إلى جوارها ، وأسرع نحوها ، وراح يدور حولها فى حذر ، وعيناه عاجزتان عن رؤية ما بداخلها ، مع ضعف الإضاءة ، و ...

وفجأة ، ارتجف جسده كله ، مع ذلك الصوت الواهن الضعيف ، الذى انبعث من السيارة المصابة ، يستغيث به ، ويطالبه بإنقاذه ، وهو يخاطبه باسم (هامبى) ..

وانتفض قلب (هيوارد) ، وقفز من بين ضلوعه فى هلع ، فعلى الرغم من أنه لم يميّز ذلك الصوت ، من شدة وهنه وضعفه ، إلا أن اسم (هامبى) هذا ، لم يكن معروفًا إلا لزوجته ، التى تداعبه به دومًا ، والتى استعارته من صديق عمره القديم (جون فيندربيرك) ..

وبكل انفعال ، انقض (هيوارد) على حطام السيارة ، وراح يفحصه ، وهو يصرخ باسم (جون) ..

والمدهش أن (جون) كان هناك بالفعل ..

وسط الحطام ..

كان محشورًا ، بين المقعد والمحرّك ، ومصابًا بجروح شديدة ، والدماء تنزف منه فى غزارة ..

وحمل (هيوارد) صديق عمره إلى سيارته ، وانطلق به إلى أقرب مستشفى ، حيث أجريت له جراحة عاجلة ، تمكّن الأطباء خلالها من إنقاذ حياته بمعجزة .. وفى تقريره الرسمى ، قال الجراح الدكتور (فيليب ماك آرنى) ، الذى أجرى العملية الجراحية للصديق (جون) إنه لو تأخر (هيوارد) عن إنقاذ صديقه ربع ساعة أخرى ؟ للقى (جون) مصرعه وسط الحطام ، دون أن يشعر به مخلوق واحد ..

وهذا صحيح ..

فالتقرير الذى نشرته جريدة (شارلوت نيوز) ، يقول : إنه ، وعلى الرغم من أن طريق (مونتفورد درايف) شديد الحيوية ، إلا أن أحدًا لم يمر به فى تلك الليلة ، منذ وقع الحادث ، وحتى مرور خمس وأربعين دقيقة ، من إنقاذ (هيوارد) لصديقه (جون) ..

العجيب أن (هيوارد) قد سمع صوت الحادث ، على بعد عشرة كيلومترات ، فى نفس اللحظة ، التى اصطدمت فيها سيارة (جون) بالعمود ، ولقد أثبتت الأبحاث ، أنه لم يقع أى حادث مماثل ، فى دائرة قطرها خمسين كيلومترًا ، من منزل (هيوارد) ..

وبسؤال (جون) ، أكّد أن أوّل ما فكّر فيه ، عندما وقع الحادث ، هو صديق عمره (هيوارد) ، أو (هامبى) ، كما يناديه منذ طفولتهما ..

السؤال إذن هو : كيف حدث هذا ؟!

كيف تلقّى (هيوارد) رسالة صديقه ؟!

العلماء يقولون : إن (هيوارد) قد تلقّى رسالة عقلية فائقة ، من عقل صديقه (جون) ، عبر ما يعرف باسم التخاطر عن بعد ، أو (التيلىباثى) ..

ويؤكدون أيضًا أن الظروف كانت مناسبة تمامًا ، لإجراء الاتصال بين الاثنين ، وعلى أفضل نحو ممكن ..

فالاثنان صديقان منذ الطفولة ، وكلاهما مرتبط بصاحبه ، ويعرف أفكاره وخلجاته جيّدًا ..

ثم إن أحدهما كان فى حالة توتر شديد ، تتيح له بث رسالة عقلية فائقة ، أو حالة (أدرينيرجيا) ، كما يسميها العلماء ..

أما الثانى ، فكان فى حالة استرخاء ، تؤهله لاستقبال الرسالة على الوجه الأكمل ، أو فى حالة (كولينيرجيا) ..

مجرّد تفسير ، حاول العلماء به إيجاد حل للغز الرسالة المدهشة ..

اللغز الذى أضيف إلى كل الألغاز الأخرى ..

ألغاز عالمنا التى لا تنتهى ..

وكلمة لا تنتهى هنا ، تنطبق على الألغاز وحدها ، أما بالنسبة لمقالاتنا ، فلا بد لها من نهاية حتمًا ، إذ لو قررنا سرد كل الألغاز والغوامض ، التى يزخر بها تاريخنا لاحتجنا إلى سنوات ، وليس إلى أسابيع ..

وبمناسبة الحديث عن التاريخ والزمن ، دعونا نتابع آخر ألغاز مقالاتنا هذه ، عبر التاريخ ..

وعبر الزمن ..

فلغزنا الأخير لغز بدأ منذ آلاف السنين ، قبل أن يعلن عن نفسه فى القرن العشرين فحسب ..

وفى متحف الآثار المصرية القديمة فى (القاهرة) ..

وهذا اللغز يبدو كعصفور ، ولكنه ليس عصفورًا ..

وهو طائر ، وليس بطائرة ..

إنه النموذج رقم (٦٣٤٧) ، فى المتحف المصرى القاهرى ..

وقصة هذا العصفور عجيبة للغاية ، وتبدأ منذ عام ١٨٩٨م ، عندما عثرت عليه حملة من علماء الآثار ، ظلّت تنقب فى منطقة (سقارة) ، طيلة شهر ونصف الشهر ، قبل أن تكشف ضريحًا قديمًا ، تم فحص محتوياته كلها بمنتهى الدقة ، وتدوين كل ما تم العثور عليه ..

ثم سرق علماء البعثة معظم محتويات الضريح ، وتركوا لنا منها ما بدا لهم بسيطًا تافهًا ، ثم حملوا ما تبقى إلى بلادهم ..

ومن بين هذا البسيط التافه ، كان نموذج العصفور ..

ومن المؤكّد ، أنهم ، عندما تركوه لنا ، لم يدر بخلدهم لحظة واحدة ، أنه ليس نموذجًا عاديًا ، وإنما هو لغز مدهش ..

بل وربما كان أغرب لغز تركه لنا التاريخ ..

على كل المستويات ..

* * *

٦ ـ العصـــــفور..

● لو أنك ذهبت لزيارة متحف الآثار المصرية القديمة فى (القاهرة) ، حاول أن تبحث عن النموذج ، الذى يحمل الرقم (٦٣٤٧) ..

فإذا ما عثرت عليه ، ستجده عبارة عن منحوتة صغيرة ، تشبه عصفورًا مفرود الجناحين ، عثرت عليه بعثة تنقيب أجنبية ، فى صحراء (سقارة) ، عام ١٨٩٨م ، ضمن عشرات الأشياء الأخرى ، التى عثرت عليها فى ضريح فرعونى قديم ، نهبت منها ما نهبت ، مما خف حمله وغلا ثمنه ، ثم تركت لنا الباقى ، ومنه منحوتة العصفور ، التى تم نقلها إلى المتحف المصرى فيما بعد ، لتقبع وسط عدد آخر من تماثيل العصافير ، خلف واجهة زجاجية ، وتحمل ذلك الرقم ..

وطوال خمسين عامًا كاملة ، ظلت المنحوتة فى موقعها ، داخل القفص الزجاجى ، ساكنة راضية ، مكتفية بموقعها هذا ..

حتى عام ١٩٦٩م ..

ففى ذلك العام ، كان العالم كله يحتفل برواد الفضاء الأمريكيين ، الذين نالوا شرف أول هبوط بشرى على سطح القمر ..

وجاء أولئك الرواد لزيارة (مصر) ، وكانت ضمن برنامج الزيارة .. كالمعتاد ـ زيارة متحف الآثار المصرية القديمة ..

وانبهر رواد الفضاء الأمريكيين بالآثار المصرية ، واتسعت عيونهم عن آخرها ، وسقطت فكوكهم السفلى ، ثم سرعان ما اندمجوا فى هذا المناخ ، الذى يحمل لهم رائحة حضارة ملأت الدنيا ، قبل حتى أن تولد قارتهم الجديدة ..

وأمام نموذج منحوتة العصفور ، رقم (٦٣٤٧) ، توقفت رواد الفضاء كثيرًا ، وعادت الدهشة تملأ عقولهم وقلوبهم ، حتى إنهم أخذوا يدورون حوله ، ويفحصونه ويمحصونه فى انبهار ، قبل أن يعتدل أحدهم ويقول فى حزم : إنه وفقًا لدراسته ، فهذا النموذج يبدو له أقرب إلى الطائرة ، منه إلى الطائر ..

وكان من الممكن أن تمضى تلك العبارة ، دون أن تترك خلفها أى أثر ، لولا أن التقطها عالم الآثار المصرى الدكتور (خليل مسيحة) ، فحمل النموذج إلى مكتبه وراح يفحصه فى روية وإمعان ، ليتضح له أن عبارة رواد الفضاء الأمريكيين منطقية بالفعل ..

منطقية إلى أقصى حد ..

فالنموذج عبارة عن جسم منتظم ، له جناحان منبسطان ، وذيل بارز جدًا ، ويحمل عبارة بحروف هيروغليفية دقيقة ، لم ينتبه إليها من قبل ..

وترجم الدكتور (خليل) العبارة ..

وقفزت دهشته أضعافًا مضاعفة ..

فالعبارة تقول : « هدية (آمون) .. سيد الرياح .. »

ومع العبارة ، كان لابد أن يتوقف الدكتور (خليل) أمام النموذج مرة أخرى ، ثم يحمله إلى عدد من المختصين ، وخبراء الملاحة الجوية ..

وبدأت عملية فحص فنية أخرى للتمثال الخشبى ، الذى يزن أربعين جرامًا ، ويبلغ طوله أربعة عشر سنتيمترًا ، وطول جناحيه المفرودين ثمانية عشر سنتيمترًا ، وطول مقدمته وحدها ثلاثة سنتيمترات ..

وفى زهو وانبهار .. ودهشة أيضًا ، أعلن الخبراء نتيجة الفحص ..

النموذج قد يبدو كالعصفور ، ولكنه مثالى تمامًا لطائرة ، حتى فى درجة ميل الجناحين ، المناسبة تمامًا للإقلاع ..

بل لقد أكّد الخبراء أننا ، وبكل علومنا وتقنياتنا الحديثة (عام ١٩٧٠م) ، لا يمكننا أن نصنع نموذجًا أكثر دقة لطائرة ..

وكان الخبر أشبه بالقنبلة ..

قنبلة عالمية ، طيرتها وكالات الأنباء إلى الدنيا كلها ، وإلى العالم أجمع ، لينبهر الكل ، وتتفجر آلاف الأسئلة ، فى العقول والرءوس والأذهان ..

وعندئذ ، ومع حالة الانبهار العالمى ، قرّر وزير الثقافة المصرى ، فى ذلك الحين (محمد جمال الدين مختار) ، فحص كل نماذج العصافير الخشبية ، فى متحف الآثار المصرية القديمة ، بوساطة خبراء الملاحة الجوية ..

وفى الثانى من يناير ، عام ١٩٧٢م ، تم افتتاح أول معرض لنماذج الطائرات الدقيقة والقديمة ، والتى تركها لنا أجدادنا ، منذ آلاف السنين ..

والمعرض يحوى أربعة عشر نموذجًا ..

وجاءت الوفود ، من كل أنحاء العالم ، لتعيد فحص النموذج ، ودراسته ، وتصويره من كل الزوايا ..

ثم هدأ الأمر ، وانشغل الناس بالدنيا ومشاكلها ، وظلت نماذج الطائرات الفرعونية قابعة فى متحفها ، لتعلن لنا فى كل يوم ، أن الكشف العظيم لم يحل اللغز ..

بل وضع عشرات الألغاز ..

وأن الأمر لم ينته عند هذه النقطة ..

بل يبدأ عندها اللغز الحقيقى !!

كيف صنع قدماء المصريين نماذج الطائرات الدقيقة هذه ؟!

من أين لهم بالمواصفات العلمية ؟!

بل ومن أين ، أو ممن أتوا بالعلوم اللازمة ، لفهم أسس هندسة الطيران وتصميماته ؟!

هل امتلكوا حقًا كل هذه العبقرية ؟!

هل ورثوها من حضارة سابقة ؟!

وكوسيلة لسرعة حسم الأمر ، خرج بعض علماء الغرب بنظرية عجيبة ، تقول : إنه من المحتمل أن قدماء المصريين قد ورثوا النماذج وليس الطوم ، من حضارة قديمة ، اندثرت مع تاريخها ، تحت رمال صحاريهم ، فلم نعلم عنها شيئًا ، ولم ينقل إلينا الأقدمون منها ما يغنى ..

وارتاح البعض لهذا التفسير ، وتصوّر أنه يحسم اللغز ، ويضع نهاية للقصة كلها ..

ولكن هيهات ..

فالأبحاث العلمية خالفت هذه النظرية تمامًا ..

بل ودكتها دكًا ..

لقد قام العلماء بفحص الأخشاب ، المصنوع منها النموذج ، واختبروها بكل الوسائل العلمية المعروفة ، قبل أن يخرجوا بنتيجة حاسمة ..

إن تاريخ المنحوتة يتوفق مع العصر الفرعونى ، الذى تنتمى إليه المقبرة ، التى تم العثور عليها فيها ..

وهذا يعنى أن قدماء المصريين قد صنعوا النموذج بأيديهم ..

وبعلومهم ..

وهذا لغز أكبر .. وأضخم .. وأعقد ..

فلو أن لديهم العلوم اللازمة ، لصنع نماذج الطائرات ، بهذه الدقة المتناهية ، فلماذا لم يصنعوا الطائرات نفسها ؟!

الأمر لا يتعلَّق حتمًا بالمحركات ؛ لأنه حتى فى عصرنا هذا ، ومع كل التقدم والتكنولوجيا ، مازالت هناك طائرات شراعية بلا محركات !

ولكن حتى هذه ، لم يصنعها الفراعنة ..

ولم نقرأ عنها أى شىء ، فى نقوش معابدهم أو بردياتهم !!

ولا حتى إشارة واحدة ..

لقد صنعوا النماذج إذن ، وبدقة متناهية ، دون أن يعرفوا شيئًا عن الطائرات نفسها ..

وهذا لغز آخر ..

لغز عجيب .. عجيب .. عجيب .. للغاية !

ولست أميل بالطبع إلى تلك الفكرة التقليديةَ المملة ، التى تنسب كل عبقريات القدامى وإنجازاتهم إلى قوم وهميين ، أتوا من كواكب أخرى ، ليمنحونا علومهم ، ثم يرحلوا دون سبب ..

فلماذا نتصوَّر دومًا أن الآخرين فقط لديهم العلوم ، والحضارة ، والتقدُّم ، وأننا فقط نحصل على ما يحسنون علينا به منها ؟!

من أحسن عليهم بعلومهم إذن ؟!

والسؤال التالى والأخير ، هو لماذا تصرّ الحضارات القديمة دومًا ، على أن تثير حيرتنا وتساؤلاتنا ، على هذا النحو العجيب ؟!

لماذا تترك لنا كومة من الألغاز الغامضة وغير المفهومة ، فى كل مكان فى العالم تقريبًا ؟!

أهرامات (الجيزة) ..

كهوف (تاسيلى) ..

بطارية (بغداد) ..

روضة (ديلمون) ..

أسطورة (أطلنطس) ..

ألغاز .. ألغاز .. ألغاز ، تملأ عالمنا كله ، وتثير تساؤلاتنا وحيرتنا ألف ألف مرة ، فى كل يوم يمضى ..

ألغاز ربما يحمل لنا الزمن أجوبة وتفسيرات شافية ، وافية ، كافية لها ..

فى المستقبل .. أو ربما فى الماضى ..

من يدرى ؟!

* * *

(تمت بحمد الله)

المفتاح ..

(قصة قصيرة)

حبيبتى الغالية ..

منذ دقائق قليلة ، سلمنى حارس العقار ذلك المظروف ، الذى تركته لى هذا الصباح ، بعد انصرافى إلى عملى مباشرة ..

المظروف ، الذى يحوى المفتاح ..

مفتاح شقتى ..

وبالنسبة لنا ، أنت وأنا ، كان لهذا معنى خاص ..

خاص جدًا ..

فمنذ التقينا ، وتعارفنا ، وربط الحب قلبك بقلبى ، منحتك مفتاح شقتى ، فى سلسلة من الفضة ، التى يذكرنى نقاؤها دومًا بنقاء قلبك الطاهر الدافئ الجميل ..

وما زلت أذكر ، حتى لحظتنا هذه ، ذلك الذعر المستنكر ، المطل من عينيك ، وأنت تحدقين فى المفتاح ، قبل أن يشتعل غضبك ، وتثورين فى وجهى ؛ لأننى جرؤت على فعل هذا ..

كنت لحظتها جريحة ، غاضبة ، مقهورة ، تتصورين أن المفتاح ، الذى أعطيك إياه ، يعنى أننى أتصورك مجرَّد أنثى عابثة ..

مستهترة ..

متساهلة ..

ولقد أدهشنى هذا ، وأصابنى بذعر شديد فى الواقع ..

فما جال ببالى أيامها ، وما دفعنى إلى منحك ذلك المفتاح ، كـان بعيدًا كل البعد عما تصوَّرته أنت تمامًا ..

وهذا لأنك نسيت أمرًا واحدًا يا حبيبتى ..

أننى لم أولد هنا ..

ولم أنشأ فى مناخ شرقى أيضًا ..

وبحكم مولدى ونشأتى ، ووفقًا لعادات المجتمع الذى ترعرت فيـه ، يعتبر منح مفتاح شقتك لمن تحب ، دليل الثقة ، والحب ، والتفاهم ، والاستقرار العاطفى التام ، الذى يلغى الحواجز بين الجانبين ..

ويفتح باب كل منهما أمام الآخر ..

وهذا ما قصدت أن أخبرك إياه لحظتها ..

وما جاهدت لأشرحه لك فيما بعد ..

لم يكن الأمر يسيرًا ..

أو الاختلاف التربوى بيننا بسيطًا ..

ولكنك كنت تحبين ..

لذا فقد استمعت ..

وفهمت ..

وتقبَّلت ..

وسامحت ..

وكحل وسط ، وافقت على أن تـأخذى مفتـاح شـقتى ، علـى ألا نلتقى فيها وحدنا أبدًا ..

وقبلت أنا شرطك على الفور ..

لأننى أحببتك من كل قلبى ..

ولقـد حافظنـا معًا على القـاعدة ، وعلى طهـارة ونظافة حبنـا ، الذى راح ينمو ، ويترعرع ، ويكبر فى كل يوم ..

ثم كنت أنت من خالف الشرط ..

حدث هذا أثناء واحدة من رحلات عملـى العديدة ، التـى أسـافر فيها خارج الحدود ، ولم أعلم به إلا عندما عدت ، لأجد منزلى نظيفاً مرتبًا ، وفـوق المـائدة هديـة رقيقـة مثلـك ، محاطـة بـورق ملـوَّن جميل ، تعلن حبك لى ، واشتياقك لعودتى ..

ولا يمكنك أن تتصوَّرى كم أسعدنى هذا ..

كم أعجبنى ، وأفرحنى ، ومس شغاف قلبى ..

وفى لقائنا التالى ، أخبرتك بمشاعرى ، تجاه قدومك إلى شقتى ، حتى ولو لم أكن فيها ، واعترفت أنت لى بأنك كنت شديدة الفضول لرؤيتها ، ومعرفة تفاصيل المكان ، الذى أحيا فيه ..

وظل الموقف كما هو ..

لا نلتقى أبدًا فى شقتى ، على الرغم من أنك تحملين مفتاحها ..

وأضيفت قاعدة رائعة جديدة ..

ففى كل مرة أعود من رحلة سفر ، كنت أجد هدية منك فى انتظارى ..

هدية بسيطة ..

رقيقة ..

جميلة ..

تمامًا مثلما أنت ..

وكم اختلج قلبى بنظرة السعادة ، التى عبر عنها كيانك كله ، عندما كشفت ذات يوم ، أننى قد صنعت قطعة أثاث ذهبية ركنية خاصة ؛ لأحفظ فيه كل هداياك إلىَّ ..

كان هذا بالنسبة لك ، دليلاً جديدًا على الحب ..

حبى لك ..

وبعدها ، أصبح تخيلك ، وأنت تجولين فى شقتى ، هو الوسيلة الوحيدة لهزيمة شوقى إليك ، فى رحلات عملى الطويلة ..

حتى بدأت تتغيرين ..

وأعترف هنا أننى لم أشعر بذلك التغيير فى البداية ؛ فقد كنت ككل محب ، أنانيًا ، مستمتعًا ، مبهورًا بعلاقتى بمن أحب ، حتى أغشى الحب بصرى عما يصيبه ..

كنت أقل كلامًا ، وأكثر عصبية ، وأندر ابتسامًا ..

ثم بدأت مرحلة العصبية ..

المرحلة التى بدأت أنتبه خلالها إلى ما يحدث ..

انتبهت .. ولكننى لم أفهم ..

ربما أيضًا بسبب نشأتى الأجنبية ..

فقد طالت قصة حبنا أكثر مما ينبغى ، وكان من الضرورى أن تنتقل إلى مرحلة جديدة ..

مرحلة الارتباط ..

الرسمى ..

وأنت لم تحاولى الإفصاح عن سر توترك وعصبيتك ..

كنت تتمنين أن أشعر بالأمر وحدى ..

أن يقرأه قلبى ..

وتدركه مشاعرى ...

وتتفق معه عواطفى ..

ولكننى لم أفعل ..

لم أفهم ..

أو أحاول أن أفهم ..

لقد تصوَّرت أن حبنا خالدًا ..

أبديًا ..

دائمًا ..

وهكذا خسرت ..

استيقظت فجأة ، لأجد أن حبك لى قدا انهزم ، أمام ضغوط توترك ، وغضبك ..

ويأسك أيضًا ..

لحظتها فقط عرفت ..

وفهمت ..

ومع معرفتى وفهمى ، حاولت أن أستردك ..

أن استرجع حبك ..

وحنانك ..

ودفئك ..

ولكن الوقت كان قد فات تمامًا كما يقولون ..

فلسبب ما ، لم يعد باستطاعتك العودة ..

أو المسامحة ..

أو الغفران ..

لقد أصبحت رافضة لحبى تمامًا ..

ولكل ما يرتبط به ..

واليوم ، أعلنت رغبتك فى فصم كل علاقة ربطتنا معًا ..

وأعدت لى المفتاح ..

نفس ما يحدث ، فى المجتمع الذى نشأت منه ..

وصدقينى يا حبيبتى ، فعلى الرغم من حزنى الشديد لما حدث ، إلا أننى لن أقاوم ..

لن أقاتل لاستعادتك قط ..

بل سأستلم تمامًا لرغبتك ، كما يفعل أى إنسان متحضر ، فى كل بيئة محترمة ..

إنها مشاعرك ، وسأحترمها تمامًا ..

فقط لى رجاء واحد ..

لا تعيدى المفتاح ..

احتفظى به دائمًا ..

اعتبريه ذكرى لحظات حبنا الجميلة ..

الطويلة ..

العطرة ..

احتفظى به يا حبيبتى ، ولو فى ركن مظلم ، من أعمق أعماق خزانتك ..

المهم أن يبقى معك ..

هذا لأنه ليس مجرَّد مفتاح شقة أنيقة ..

إنه مفتاح قلب ..

قلبى أنا ..

وهو لك ..

وسيظل لك ..

ولك وحدك ..

إلى الأبد ..

* * *

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
حبيبى
دراسة
٤ ـ حبك نار

٤ـ حبك نـــار..

هل عرفت يومًا ذلك الحب ... النار ؟!

الحب الحار ..

الساخن ..

الملتهب ..

ذلك الحب ، الذى ما أن يدخل قلبك ، حتى يشعل النيران فى كل خلاياه ، ويحوّل الدماء فيه إلى حمم ، لا تبقى فى كيانك ذرة واحدة ، إلا وتتحرّق لهفة لرؤية المحب ، ومقابلته ، والعيش بين ذراعيه ، حتى آخر العمر ..

وللوهلة الأولى ، يبدو ذلك الحب أشبه بالحلم ، الذى يتمنى كل إنسان أن يحياه ، ولو ليلة واحدة ..

الحلم فى أن يحب ، بكل هذه القوة ..

وأن يُحبَّ أيضًا ، بالقوة نفسها ..

وقديمًا ، كانت كل قصص الحب من ذلك النوع ، حيث يغرق الحبيب فى عشق محبوبته ، منذ اللحظة الأولى ، ويمتلكه حبها حتى النخاع ، فيقاتل فى سبيلها ، ويخوض غمار الحروب والمعارك ، حتى يفوز بها ..

أو لمجرّد أن يثبت لها حبه ..

وهذه الصورة دائمًا جميلة وخلاّبة ، وبالذات للجنس اللطيف ، إذ أنه ما من فتاة أو امرأة فى العالم ، إلا وتتمنى أن يحبها شخص ما ، كل هذا الحب العاصف الجارف ..

وأن يذوب عشقًا لخطواتها ..

وهمساتها ..

ولمساتها ..

وحتى لمجرّد مرآها ..

والأنثى ، كل أنثى ، تجد فى هذا الحب كل الراحة ..

والاطمئنان ..

والسعادة ..

والأمان ..

ولكن بشرط واحد ..

أن تميل إلى من يمنحها كل هذا الحب ..

وأن يمكنها هى أيضًا ، على نحو أو آخر ، وأن تحبه ..

فإن لم يتحقّق هذا الشرط ، الأساسى جدًا ، فالحب نفسه سيتحوّل ، فى هذه الحالة ، إلى نار حقيقية ..

نار تلسع ..

وتلهب ..

وتحرق أيضًا ..

وسيتحوّل الحلم نفسه ، بكل وأدق تفاصيله ، إلى كابوس ..

كابوس بشع ، يرتجف المرء كلما أوى إلى فراشه ؛ خشية أن يلتقى به فى منامه ..

فماذا عن صحوه ؟

فالمحب الذى يعشق الآخر بحب من نار ، لا يمكن أن يقبل بالتنازل عنه أبدًا ..

مهما كان الثمن ..

ومهما كانت التضحيات ..

ومهما بلغت الصعاب ..

فإن لم يظفر به مباشرة ، فسيظل يطارده فى إلحاح ..

ويقاتل للظفر به ..

ويجاهد للفوز بمشاعره ..

وبالنسبة للطرف الآخر ، ستصبح هذه مشكلة ، ما بعدها مشكلة ..

وبالذات لو كان الطرف الآخر هو الأنثى ..

فالانثى تركيبة خاصة جدًا ، تختلف تمام الاختلاف عن الذكر ، فى أن مشاعرها قوية ..

واضحة ..

واثقة ..

ومؤكدة ..

وهذا بالنسبة لها شخصيًا على الأقل ..

وبسبب كل هذا ، فمشاعر المرأة مباشرة جدًا ، ولا تقبل فى نظرها ..

المساومة أو التهاون ..

وليس لديها أى حل وسط ..

فهى إما أن تحب ..

أو لا تحب ..

والحب أو اللاحب ، يحولان المرأة إلى كائنين مختلفين تمامًا ..

فإذا ما أحبَّت ، أصبح المحبوب هو كل شىء فى الوجود ..

ملامحه وسيمة ..

دعاباته مضحكة ..

أفكاره عبقرية ..

وحتى أخطاؤه ، هى نتاج حكمة ، وذكاء ، وبعد نظر ..

أما لو لم تحب ، فكل شىء ينقلب إلى العكس تمامًا ..

الملامح تصبح مستفزة ..

والدعابات سمجة ..

والأفكار غبية ..

أما الأخطاء ، فهى تعبير عن الحماقة ، والسخافة ، وقصر النظر ..

ومن الطبيعى أن تسعد كل امرأة فى الدنيا ، عندما يحبها ، حبًا من نار ، شخص وسيم ..

لطيف ..

وعبقرى ..

ومن الأكثر طبيعية أن تضيق ، أو حتى تغضب ، إذا ما جاء هذا الحب من شخص مستفز ، وسمج ، وغبى أيضًا ..

وكل هذا طبعًا من منظورها وحدها ..

فمن الممكن جدًا أن تتفق الدنيا على أن ذلك الذى يحبها ، شخص ممتاز ، أو رائع ، وتتمناه كل أنثى فى الدنيا ..

ولكنها وحدها ، لا ترد هذا ..

فلا تحب ..

أو تميل ..

أو تتفاعل ..

وعلى العكس تمامًا ، فقد تجد دهشة عارمة فى وجوه الجميع ، من سخافة وضآلة وتفاهة الشخص ، الذى وقعت فى غرامه امرأة ما ، وذابت فى عشقه ، كما لم تذب امرأة فى عشق رجل من قبل !!

ويا لسعادتها وفرحتها ، لو أحبها هو بدوره ..

ويا لروعة الدنيا ، لو كان حبه من ذلك النوع ..

الحب النار ..

والتاريخ المكتوب ، أو حتى الروائى ، لا يتوقف طويلاً أمام أى حب ، حتى ولو كان حبًا من نار ، لو أنه حب من طرف واحد ..

ففى هذه الحالة يعتبر دومًا ، نوعًا من الحب اليائس ..

اليائس ..

الفاشل ..

أما لو حدثت المعجزة ، وأصبح الحب من نار ، من الطرفين فى آن واحد ، فلا أحد فى الدنيا يمكنه أن يتجاهل هذا ..

أو حتى يدير عينيه عنه ..

فالنار تلتقى بالنار ، ليضعان معًا شلالاً من اللهب ، لا يمكنك إلا أن تتوقف أمامه مبهوتًا ومبهورًا ..

وربما حاسدًا أيضًا ..

ولأنه حب مزدوج من نار ، والنار تلتهم كل ما يعترض طريقها فى المعتاد ، فذلك الحب النادر يبدو أشبه بموجة هائلة ، تكتسح أمامها كل شىء فى الوجود ؛ لتثبت قوتها ..

وتؤكد صدقها ..

وتستقر هادئة متماسكة فى النهاية ..

وراجع معى التاريخ ..

التاريخ الفعلى ..

والتاريخ الروائى ..

من منا يجهل تفاصيل الرواية الخالدة (روميو) و(جولييت) ، عندما ربط بينهما حب من نار ، تجاوز الخلافات الأزلية والموروثة بين عائلتيهما ، وتحدِّى عناد وإصرار الأسرتين ، وقاتل عنف الجميع لمنع ارتباطهما ، الذى لم يكتب له أن يتم فى الحياة الدنيا ، وانتهى إلى لقاء فى الحياة الآخرة .

ومن لم يسمع أشعار (عنترة العبسى) ، فى محبوبته وابنة عمه (عبلة) ، الذى قاتل من أجلها جنود (كسرى) ، ليعود إليها بالنياق الحمر ..

بل ومن لم تبهره قصة الملك (إدوارد) ، الذى تخلّى عن عرشه وملكه ، وخلع عن رأسه تاج (إنجلترا) حتى آخر العمر ، ليفوز بقلب حبيبته مسز (سمبسون) ، ويكتفيان معًا بدوقية (ويندسور) ، التى احتوت حبهما المشتعل ، حتى آخر لحظة فى حياتهما ..

ولاحظوا أنه ، فى معظم هذه القصص ، كان هناك شخص ثالث .. حبيب آخر ، يتملكه أيضًا حب من النار ..

ولكن البطلة ترفضه ..

وتنبذه ..

بل وتكرهه أيضًا ..

الحب إذن من نار ، فى كل الأحوال ..

ولكن ليست كل النيران عظيمة ..

محبة ..

أو سخية ..

هذا ما علمنا إياه التاريخ ..

وما لقننا إياه الأدب ..

وما أكّدته لنا الدنيا ..

وما أوصلنا إليه التفكير المرتّب المنطقى ، عندما نناقش فكرة الحب الملتهب ، عندما يتملك الرجل تجاه المرأة ..

والآن علينا أن نتساءل عما يمكن أن يحدث ، لو أن العكس هو الصحيح ..

لو أن المرأة هى التى تحب الرجل ، حبًا من نار !!

صحيح أن الحالات المعروفة فى هذا المضمار نادرة ، إلا أن هذا لا يعنى أنها غير موجودة على نطاق واسع ..

كل ما فى الأمر ، أن المرأة ليست لديها الجرأة الكافية - للإفصاح عن حب من نار يلتهم أعماقها ، تجاه رجل لا يشعر بوجودها ..

أو حتى لا يدرك هذا ..

ولأن ثقافتنا مازالت شرقية ، ذكورية ، متزمتة ، مهما بدا العكس ، فى الآونة الأخيرة ، فالمجتمع يواجه المرأة بالصدمة ، والاستنكار ، والازدراء ، وربما النفور أيضًا ، لو أنها أفصحت عن حقيقة مشاعرها ، تجاه رجل ما ..

فما بالك لو أن مشاعرها هذه من نار !

لذا ، فقد نمت المرأة ، ونشأت ، وترعرت ، وتربّت على إخفاء مشاعرها ، وكتمانها ..

بل وإنكارها فى بعض الأحيان ..

ولكن هذا لايمنعها من السعى المستميت ، للفوز بمن أشعل قلبها ..

وللمرأة فى هذا وسائل مختلفة ، تبدأ بمحاولة لفت الانتباه ، وإيقاظ المشاعر ، وتنتهى بمحاولات الإغواء فى حالات نادرة ..

وبعض الرجال يسعدهم جدًا أن تسعى الأنثى خلفهم ؛ لأن هذا يشعرهم بأهميتهم ، وكفاءتهم ، وجاذبيتهم تجاه الجنس الآخر ..

وهذا النوع من الرجال ينبهر ، إذا ما لمس نيران حب أنثى ما ..

وربما يسقط فى حبها أيضًا ، ويوفّر لها مشوارًا من السعى والتعب والمحاولة ..

أو تروق له اللعبة ، فيتمادى فى إظهار لامبالاته ، لينعم بسعيها خلفه أكثر وأكثر .. والمرأة لديها ذكاء خاص ، فى هذا المضمار بالذات ؛ وهى تدرك بسرعة حقيقة مشاعر الرجل تجاهها ، وتتخذ قرارها بناء على حصيلة دمج مشاعرها بمشاعره ، ومن منظورها الخاص جدًا ..

فقد تواصل القتال ، مع تغيير التكنيك ..

أو تتوقّف ؛ لالتقاط أنفاسها ، وإعادة دراسة الموقف ..

أو تدرك أنها تخوض حربًا خاسرة ..

فتنسحب ..

والحالة الأخيرة ، لاتلجأ إليها المرأة أبدًا ، إلا إذا أدركت أن الرجل ، الذى شغف به قلبها ، واقع فى عشق أخرى ..

وأن تلك الأخرى تبادله عشقًا بعشق ..

فى هذه الحالة فقط ، تدرك أن القتال عقيم ، وأن جبهة أخرى قد فازت بالنصر فى المعركة ..

وهذا ليس أمرًا حتميًا ، بل من الممكن جدًا أن تواصل المرأة القتال ، على الرغم من كل هذا ..

وعندئذ تتحوّل إلى كتلة من النار بالفعل ..

نار تحرق كل ما أمامها ، بلارحمة أو شفقة ، وتلقى خلف ظهرها كل القواعد والتقاليد ، فى سبيل الفوز بمن تحب ..

والفوز فقط .. والدافع هو الحب نفسه ..

الحب النار ..

وعلى الرغم من كل ما سبق ، ومن الصورة الملتهبة ، التى يصنعها الحديث عن الحب النار ، إلا أنه حب قصير المدى ، مهما طال عمره ..

تمامًا كالنار ..

تحرق ، وتنتشر ، وتلتهم ..

ثم لا تلبث أن تهدأ ، وتخبو ، وتنطفئ ..

وتتحوّل إلى رماد ساخن ، سرعان ما يبرد ..

ويبرد ..

ويبرد ..

فمشكلة هذا النوع من الحب ، هو أنه يحتاج إلى حطب يزكيه باستمرار ، ويضمن اشتعاله على النحو نفسه طوال الوقت ..

ومشكلته الكبرى أن طرفيه يعشقانه ، ويأبيان التخلّى عنه ، أو القبول بتحوّله إلى حب هادئ ، عميق مستقر ..

ولأن دوام الحال من المحال ، فمن الطبيعى أن تهدأ نيران الحب بالارتباط ..

وأن يفقد سمته الأساسية ..

الالتهاب ..

وعندئذ يغضب أحد المحبين ، ويثور ، و ...

وهذا أمر طبيعى ؛ لأنه يتفق تمامًا مع ذلك النوع من الحب ..

الحب النار ..

* * *

١ ـ الحـــلم ..

« هل رأيت الطالب الجديد ؟! »

هتفت (نجوى) بالعبارة، فى شغف واضح، وهى تصفق بكفيها، كعادتها كلما بلغ حماسها ذروته، متجاهلة أنها تقف فى ساحة الكلية، فتطلّعت إليها صديقتها (مروة) فى حيرة، متسائلة :

ـ وماذا عنه ؟!

مالت (نجوى) نحوها، وأطلّ الانبهار من ملامحها وصوتها، وهى تجيب :

ـ إنه أشبه بنجوم السينما .. يا إلهى ! ما أشد وسامته .

اتسعت عينا (مروة)، فى دهشة حقيقية، مع كل ذلك الحماس المبهور، الذى يتفجّر من كل خلية من خلايا صديقتها، وأثار هذا فضولها إلى أقصى حد، فوجدت نفسها تتساءل، فى اهتمام شديد :

ـ أين هو ؟!

أشارت (نجوى) بإبهامها إلى ما خلف ظهرها، مجيبة بنفس الحماس :

ـ فى حجرة شئون الطلاّب، يسجّل أوراق التحاقه ..

تساءلت (مروة) فى دهشة :

ـ التحاقه ؟! إننا فى نهاية العام تقريبًا .

أومأت (نجوى) برأسها موافقة، وقالت :

ـ أعلم هذا، ولكنهم يقولون : إن ظروف والده هى التى جعلته يصل متأخرًا هكذا، فهو سفير فى إحدى دول (أوروبا) على الأرجح، وزميلنا الجديد كان يدرس هناك، حتى عاد والده إلى الوطن، فنقل أوراقه إلى هنا، و ...

قاطعتها (مروة) فى حيرة :

ـ من أين أتيت بكل هذه المعلومات ؟!

قلبت (نجوى) كفيها، قائلة فى ثقة :

ـ إنه أمر بسيط كما تعلمين .

ضحكت (مروة)، وهى تشير إلى رأسها، قائلة :

ـ بل هو استنتاج، صنعه عقلك كالمعتاد .. أليس كذلك ؟!

هزّت (نجوى) كتفيها، قائلة :

ـ وماذا فى هذا ؟! أنت تعلمين أننى عبقرية فى علم الاستنتاج ..

أطلقت (مروة) ضحكة صافية، قبل أن تقول :

ـ بالطبع .. وكيف يمكننى أن أنسى ؟! لقد أخبرت الكلية كلها بقصة زواج الدكتورة (وفاء) ، ورويت لهم أدق تفاصيل قصة حبها ، وإصرارها على أن يتم الزواج بسرعة ، وفى حفل عائلى بسيط ، ثم عادت الدكتورة من إجازتها ، لنعلم أن غيابها كان بسبب مرض والدها ؟!

انعقد حاجبا (نجوى) ، وهى تقول :

ـ ولكنها كانت ترتبط بعلاقة حب ، مع الدكتور (رجائى) ، الذى حصل على إجازته فى الفترة نفسها .. هل نسيت ؟!

قالت (مروة) :

ـ وماذا عن صديقنا (أشرف) ، الذى يعمل فى المخابرات ؟!

هتفت (نجوى) محتجة :

ـ كان يكثر من الأسئلة .. هل يمكنك إنكار هذا ؟!

ابتسمت (مروة) ، وربتت على كتفها ، قائلة :

ـ لا بأس يا (نجوى) .. لا بأس ..

ثم اتسعت ابتسامتها ، وهى تستطرد :

ـ هل تعلمين ما الذى يجعلنى أحتمل استنتاجاتك هذه ؟

لوّحت (نجوى) بسبّابتها ، مجيبة :

ـ إنها عبقرية .

مالت (مروة) نحوها ، هامسة :

ـ بل لأنك من داخلك طيبة القلب بحق .

هتفت (نجوى) ، بلهجة بدت أقرب إلى الاستنكار :

ـ أنا ؟!

ضحكت (مروة) مرة أخرى ، من أعماق قلبها ، وتراجعت مع ضحكتها الصافية ، و ...

وفجأة ، انتفض قلبها بين ضلوعها فى قوة ..

فقد وقع بصرها عليه ..

على الطالب الجديد ..

والواقع أنه كان وسيمًا بحق ..

وإلى درجة مدهشة ..

وتمامًا كما وصفته (نجوى) ..

كان أشبه بنجوم السينما ..

« ألم أقل لك ؟! »

هتفت (نجوى) بالعبارة فى خفوت ، يحمل كل الحماس واللهفة ، واستمعت إليها (مروة) جيدًا ، ولكنها لم تستطع النطق بحرف واحد ..

فقد كانت مبهورة ..

وبحق ..

فذلك الطالب الجديد بدا أشبه بـالحلم ، الـذى يمكـن أن تحلـم بـه أية فتاة ، وهى تصنع بخيالها صورة لفتى أحلامها ..

فهو وسيم ، طويل ، قوى البنية ، جاد الملامح ..

أما ثيابه ، فقد كانت تجمـع بين البسـاطة والأناقـة ، علـى نحـو يوحى بأنه من أسرة اعتـادت الـثراء ، حتـى لـم تعد تبـالى كثيرًا بالإسراف فى المظاهر ..

وبكل الحماس ، همست (نجوى) :

ـ إنه يشبه نجوم السينما .. أليس كذلك ؟! يشبه الأمير ، الـذى يظهر فى أفلام الأساطير ، ليغامر طوال الوقت ، من أجل البطلـة ، ليفوز بها فى النهاية .

وتنهّدت مع نهاية عبارتها ، قبل أن تكمل :

ـ يا إلهى ! كم أحسد البطلة التى ستلعب الدور أمامه .

واختلج قلب (مروة) مرة أخرى ، مـع عبـارة صديقتهـا ، التـى لمست ، فـى تلـك اللحظـة ، وترًا شديد الحساسية ، فـى غيـاهب قلبها ..

فكم كانت تتمنى ، لـو أنهـا تلعب دور البطلـة أمامـه ، فـى فيلـم رومانسى طويل فيلم لا ينتهى أبدًا ..

وراح عقلها يحيا ذلك الدور ..

وينسجه ..

وينمّقه ..

و ....

وفجأة ، انتفض شىء ما فى أعماقها ..

شىء صرخ يستنكر : ماذا دهاك يا (مروة) ؟!

ماذا أصابك ؟!

كيف تخدعك عيناك إلى هذا الحد ؟!

كيف تسقطين فى فخ الانبهار ، بشكل خارجى فحسب ؟!

إنه شاب وسيم أنيق ..

ليس هناك أدنى شك فى هذا ..

ولكنه لا يعنى أنه يناسبك ..

ماذا لو كان تافهًا ؟!

مغرورًا ..

أو متعاليًا ..

ماذا لو أن الثراء ، الذى يرفل فيه منذ نعومة أظافره ، كما يبدو واضحًا ، قد دفعه إلى إهمال عقله وثقافته ..

بل ماذا لو أنه يعانى من كل هذه النقائص مجتمعة ؟!

« لا .. »

نطقتها فجأة فى حدة ، جعلت (نجوى) تلتفت إليها ، مكرِّرة فى دهشة :

ـ لا ؟! ماذا تعنين بكلمة لا هذه ؟!

لم تدر (مروة) بِمَ تجيبها ، فتخضَّب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تقول فى توتر :

ـ لا يشبه أى أمير ، من أمراء السينما .

غمغمت (نجوى) ، فى دهشة أكثر :

ـ وهل يستحق الأمر كل هذا الانفعال ؟!

أجابتها (مروة) فى عصبية :

ـ هو نفسه لا يستحق منك كل هذا الانبهار .

هتفت (نجوى) :

ـ حقًا ؟!

ثم ابتسمت ، مكملة فى مرح :

ـ إنها واحدة من المرات القليلة ، التى نختلف فيها إذن .

بدت (مروة) عصبية أكثر مما ينبغى ، وهى تقول :

ـ فليكن .

قالتها ، وهى تستدير ، وتبتعد عن المكان كله ، دون أن تضيف حرفًا واحدًا ، كما لو أنها تفر ..

تفرّ من عينيها اللتين تجاهدان ؛ للنظر إلى ملامحه الوسيمة مرة أخرى ..

كانت تفر ، حتى إنها لم تكتف بمغادرة المكان فحسب ، وإنما الكلية كلها ، فانطلقت عائدة إلى منزلها ، الذى وصلته فى ساعة مبكرة ، جعلت أمها تستقبلها فى دهشة ، قائلة :

ـ (مروة) ؟! ماذا حدث ؟!

سألتها (مروة) فى ضيق :

ـ وماذا يمكن أن يحدث ؟!

هزَّت أمها كتفيها ، قائلة :

ـ أخبرينى أنت .. إنها أوَّل مرة تعودين فيها من كليتك ، فى هذه الساعة المبكِّرة ؛ فالنهار لم ينتصف بعد .

شعرت (مروة) بالحيرة ، وهى تبحث عن جواب مناسب ، ثم لم تلبث أن قالت فى ضيق :

ـ لست أدرى .. كل شىء يبدو سخيفًا وغريبًا اليوم .

لم تكد العبارة تتجاوز شفتيها ، حتى شعرت بسخافتها ، وتمنت لو أنها تستطيع استرجاعها ، قبل أن تلتقطها أمها ، وتنغمس معها فى نقاش عقيم طويل ، و ....

« أنت على حق .. »

نطقتها أمها فى ضيق مماثل ، مع تنهيدة حارة ملتهبة ، جعلتها ترفع عينيها إليها فى دهشة ، فتابعت الأم ، فى شىء من الأسى :

ـ والدك أيضًا لم يبد طبيعيًا ، وهو يقطع إجازته ، التى انتظرناها طويلاً ، ويعود إلى عمله اليوم .

حمل صوت (مروة) مزيجًا من الدهشة ، والاستنكار ، وخيبة الأمل ، وهى تقول :

ـ عاد إلى عمله ؟! وماذا عن الإجازة ؟! ورحلة (الإسكندرية) ، التى خططنا لها ، فى عطلة نهاية الأسبوع ؟!

تنهّدت الأم فى أسى ، قائلة :

ـ يمكنك إضافتها إلى كل ما سبق إلغاؤه ، منذ التحق والدك بعمله الجديد ..

لم تكن أوّل مرة يحدث فيها هذا ، إلا أنها كانت فرصة لإفراغ انفعالاتها ، فألقت حقيبتها عبر الحجرة ، وهى تصرخ :

ـ لا .. ليس فى كل مرة !

تركتها أمها تعلن عن غضبها واستنكارها ، وهى تهزّ كتفيها ، وتعود لمواصلة عملها فى المنزل ، قائلة :

ـ أخبريه هذا عندما يعود .

كانت وسيلة بارعة من أمها ، للهروب من مناقشة الأمر كله ؛ فهى تعرف ، مثل ابنتها الوحيدة ، أنه فى كل مرة يتم استدعاء والدها ، على هذا النحو العاجل ، لا يعود أبدًا فى اليوم نفسه ..

أو حتى فى الأسبوع نفسه ..

بل ولم يفصح مرة واحدة عن سبب استدعائه ..

أو طبيعة عمله ..

أو أين قضى فترة اختفائه ..

كل ما حدث ، هو أنه ذات مرة ، وبعد عودته من مهمة ما ، عثرت أمها فى جيب معطفه ، على بقايا تذكرة حافلة ، تحمل كلمات ألمانية ..

ومرة أخرى ، سمعته هى يتحدّث عبر الهاتف بالإيطالية ..

ولقد أبدت يومها دهشتها البالغة ، من معرفته باللغة الإيطالية ، فاكتفى هو بابتسامة هادئة ، وتربيتة على كتفها ، ثم لاذ بالصمت كعادته ..

ولم يفصح عن الأمر أبدًا ..

وكان هذا يثير غضبها وتوترها دومًا ، حتى إنها باتت تبغض كل غامض ، ومريب ، ومجهول ..

وكانت تصر على أنه من حقها ، ومن حق أمها أن يعلمان ، أى عمل يؤديه رب الأسرة بالضبط ..

ففى طفولتها ، كان يرتدى زيًا عسكريًا ، يبدو فيه شديد الوسامة ، إلى حد كبير ..

ثم فجأة ، وفى منتصف مرحلتها الثانوية ، تخلّى عن زيه العسكرى ، وأصبح يرتدى ثيابًا مدنية ..

وبدأت مرحلة الأسرار ..

والغموض ..

والتوتر ..

كل هذا جال بخاطرها ، وهى تأوى إلى فراشها ، فى منتصف النهار ، على غير عادتها ، وتدس جسدها تحت الأغطية ، و ...

وتذهب فى سبات عميق ..

ولكن يبدو أن ذلك الطالب الجديد الوسيم أبىَ أن يفارقها ..

حتى فى أحلامها ..

فقد كان هناك ، يحادثها ، ويرافقها ، ويراقصها فى ساحة رخامية لقصر كبير منيف ، يطير فوق السحاب ..

وكان هو أمير هذا القصر ..

أمير حقيقى ..

ولقد استغرقت فى الحلم ، حتى إنها لم تستيقظ ، إلا بعد منتصف الليل ..

استيقظت على صوت والدها ، وهو يتحدَّث عبر الهاتف ، خارج حجرتها مباشرة ..

ولقد أدهشتها بحق عودته السريعة هذه ، على خلاف المعتاد ، ودفعتها إلى القيام بعمل ، لم تفعل مثله ، فى حياتها كلها ..

لقد غادرت فراشها ، وتسلّلت على أطراف أصابعها ، لتلصق أذنها بالباب ، وتنصت إلى ما يقوله والدها عبر الهاتف ..

كان يتحدَّث بصوت خافت نسبيًا ، حجب سمك الباب معظمه عن أذنها ، فلم تلتقط منه سوى كلمات قليلة ..

جسم غريب ..

الفضاء ..

مطاردة بالمقاتلات ..

كائن فضائى ..

كلمات كانت تكفى ؛ لتثير فى نفسها خوفًا مبهمًا ، وتنسج فى عقلها قصة مخيفة ، تبدو أشبه بما تراه فى أفلام الخيال العلمى ، التى لم ترق لها أبدًا ..

مجرَّد ربط الكلمات ، كان ينسج القصة العجيبة ..

جسم غريب أتى من الفضاء ، وطاردته مقاتلاتنا ، قبل أن يخرج منه مخلوق ما ..

مخلوق من كوكب آخر ..

رباه ! أهذا ممكن ؟!

هل تتحوَّل روايات الخيال العلمى إلى حقائق ، بهذه البساطة المخيفة ؟!

هل ؟!

أم أن هذا مجرَّد جزء من الحلم ؟!

حلمها !!

كانت تدرك تمامًا أنها قد استيقظت ، وأن ما سمعته على لسان

والدها حقيقة ، إلا إنها ، وعلى الرغم من هذا ، عادت إلى فراشها ، وأغمضت عينيها ، وهى تتمنى أن يكون هذا حلمًا ..

مجرَّد حلم ..

وبكل ما يعتمل فى نفسها ، أغمضت عينيها ..

وعادت تنام ..

وبمنتهى العمق ..

« أمى .. هل عاد أبى أمس ؟! »

ألقت السؤال على أمها فى اهتمام ، فور مغادرتها فراشها ، فى الصباح المبكِّر ، فتطلَّعت إليها أمها فى دهشة ، متسائلة :

ـ لست أدرى .. هل التقيت به ؟!

هتفت بسرعة :

ـ بالطبع .. سمعته يتحدَّث فى الهاتف ، بجوار حجرتى .

حدَّقت أمها فى وجهها بدهشة أكبر ، وهى تقول :

ـ فى الهاتف ؟! ولكن الهاتف معطَّل منذ ظهر أمس يا (مروة) .

هتفت (مروة) مستنكرة ، وهى تلتقط سمَّاعة الهاتف :

ـ معطَّل .. مستحيل ! أنا واثقة أن ...

بترت عبارتها دفعة واحدة ، عندما وضعت السمّاعة على أذنها ، وفوجئت بأن أمها على حق ..

وفى حيرة حقيقية ، هزّت أمها رأسها ، قائلة :

ـ لو أن والدك قد عاد أمس بالفعل ، فسيدهشنى هذا حقًا ؛ فستصبح أوّل مرة ، لا أشعر فيها بعودته ، فى حياتى كلها .

بدت (مروة) حائرة متوترة ، وهى تعيد سمّاعة الهاتف إلى موضعها ، مغمغمة :

ـ ولكن .. ولكننى سمعته أمس ..

واصلت أمها ، وكأنها لم تسمعها :

ـ ثم إنه لم يترك أى أثر ، يشف عن عودته ، أو يبرّر سبب قدومه ، وخروجه دون أن نشعر به !

تضاعف توتر (مروة) وحيرتها ، وهى تتمتم :

ـ ربما .. ربما كان مجرّد .. حلم .

ابتسمت أمها ابتسامة حانية ، وهى تقول :

ـ هو كذلك بالتأكيد ..

لم تُعلّق (مروة) على كلمات أمها بحرف واحد ..

ولكن حيرتها لم تفارقها أبدًا ..

لم تفارقها حتى وهى تستقل الحافلة الخاصة ، فى طريقها إلى كليتها ، عبر الطريق الصحراوى الطويل ..

فهى واثقة من أن والدها قد عاد مساء أمس ..

ومن أنها قد سمعته يتحدّث عبر الهاتف ..

سمعته يتحدّث عن الفضاء ..

والجسم الغريب ..

والمخلوق ..

لم يكن حلمًا !

إنها واثقة بأنه لم يكن كذلك أبدًا ..

شغلتها الفكرة طوال الطريق ، فبدت صامتة شاردة ، على نحو أثار اهتمام صديقتها (نجوى) ، التى مالت على أذنها ، هامسة :

ـ أهو الطالب الجديد ؟!

أدارت (مروة) عينيها إليها فى ضيق ، وهى تسألها فى توتر :

ـ ألا يمكنك التفكير فى أمور أخرى ؟!

غمزت (نجوى) بعينها ، قائلة فى خبث :

ـ ألا يمكنك أنت ؟!

قالتها ، وأطلقت ضحكة قصيرة ماكرة ، فأشاحت (مـروة) بوجهها مرة أخرى ، وغمغمت فى شىء من الحدة :

ـ يا للسخافة ! أنت لا ..

بـترت عبارتها بغتـة ، مـع توقف الحافلـة المفـاجئ ، واندفـع جسدها مـع أجسـاد الآخرين إلـى الأمـام لحظـة ، قبل أن تعتـدل ، وتقول فى عصبية :

ـ ماذا هناك ؟!

تركت (نجوى) مقعدها ، واندفعت نحو مقدّمة الحافلة ، هاتفة :

ـ سأعود بالجواب فورًا .

مالت (مروة) برأسها عبر النافذة ، محاولة استطلاع السبب ، قبـل عـودة صديقتهـا ، وانعقـد حاجباها ، وهـى تمدّ بصرهـا بعيـدًا ..

بعيدًا جدًّا ..

إلى منطقة تبعد عن الطريق مسافة نصف كيلومتر تقريبًا ..

فى قلب الصحراء ..

منطقة بدت أشبه بخلية نحل وسط الرمال ..

فهناك ، كانت كومة من السيارات تحيط بمنطقة ما ..

سيارات عسكرية ومدنية ..

صغيرة وكبيرة ..

عادية ومجهّزة ..

وحول تلك السيارات وبينها ، كان هناك عدد من العسكريين والمدنيين ، يتحركون ويتناقشون ، فى اهتمام كبير ..

وفى السماء ، كانت هناك ثلاث طائرات هليكوبتر عسكرية ، تمشّط المنطقة كلها ، على نحو يوحى بأنها تبحث عن شىء ما ..

شىء مهم جدًّا ..

شىء ربما يرتبط بـ ....

« سيفتشون الحافلة » ..

هتفت (نجوى) بالعبارة فى صوت خافت ، وهى تلهث فى انفعال شديد ، فانتزعت (مروة) من أفكارها ، وجعلتها تردّد فى توتر :

ـ يفتشون الحافلة ؟! من هم ؟! ولماذا ؟!

أجابتها (نجوى) ، وهى تستعيد مقعدها إلى جوارها :

ـ العسكريون .. لقد استوقفوا كل السيارات المـارة ، ويقومـون بتفتيشها كلها .

ثم مالت نحوها ، هامسة فى حماس :

ـ إنهم يبحثون عن بعض الإرهابيين ، الذين قاموا بعملية عنيفة أمس ، و ...

قاطعتها (مروة) فى ضجر :

ـ كفى .

لم تكد كلمتها تنطلق ، حتى برز ذلك الضابط داخل الحافلة ، يتبعه جنديان مسلحان ، وراح الثلاثة يسيرون فى ممرها ، وعيونهم ترصد وجوه الجميع ، بنظرة شك متحفزة ، ويتوقفون عند البعض ، ليرموهم بنظرات صارمة ، جعلت (نجوى) تهمس ، فى لهجة بدت أقرب إلى الجذل العابث :

ـ هل تعتقدين أنهم سيوقفون أحدًا ؟!

لم تكد تنتهى من همسها ، حتى توقّف الضابط إلى جوارها ، وقال فى صرامة :

ـ أوراقك ..

لوهلة ، تصوّرت (مروة) أنه يقصد صديقتها (نجوى) ..

وكذلك تصوّرت (نجوى) أيضًا ..

ولكن الواقع أن نظراته الحادة كانت تتجه إلى المقعد الذى خلفهما مباشرة ..

وبحركة آلية ، استدارت الاثنتان إلى المقعد الخلفى ..

وشملتهما دهشة واحدة ..

فذلك الطالب الوسيم الجديد ، كان يجلس هناك ..

خلفهما مباشر ..

وكان غارقًا فى نوم عميق ..

عميق إلى حد مدهش ..

وبكل دهشة وحيرة الدنيا ، سألت (نجوى) نفسها : كيف لم تنتبه إليه ، إلا فى هذه اللحظة !!

أما (مروة) ، فقد تطلّعت إلى ملامحه الوسيمة ، التى بدا عليها توتر شديد ، مع ارتجافة جفنيه العصبية ، التى توحى بأنه يعانى من حلم مزعج ..

أو كابوس ثقيل ..

ومرة أخرى ، وبصرامة أكثر ، صاح فيه الضابط :

ـ أوراقك من فضلك .

انتفض الشاب بحركة عنيفة ، وكأنه يستيقظ من سبات مضطرب ، واعتدل فى مقعده بحركة سريعة ، وبدت عيناه محمرتين بشدة ، وهو يتساءل :

ـ ماذا ؟!

كررَّ الضابط ، للمرة الثالثة :

ـ أريد مطالعة أوراقك .. هويتك وبطاقتك الطلابية ، وكل ما يثبت شخصيتك .

بدت (نجوى) شديدة الاهتمام ، وهى تتابع الموقف ، وكأنما ترغب فى معرفة ما سينتهى إليه ، أما (مروة) ، فكل ما شغل بالها هو ذلك الحلم ، الذى جعله يستيقظ على هذا النحو المضطرب ..

أما الشاب نفسه ، فقد التقط حافظته فى توتر ، وناول الضابط أوراقه ، فطالعها هذا الأخير فى اهتمام ، قبل أن يعيدها إليها ، قائلاً :

ـ أنت طالب جديد فى الكلية ؟!

أومأ الشاب برأسه ، دون أن يجيب ، فسأله الضابط ، وهو يميل نحوه :

ـ أليس الوقت متأخرًا ، للالتحاق بالكلية ؟! لقد شارف العام نهايته !

أعاد الطالب أوراقه إلى حافظته ، وأعادها إلى جيبه ، وهو يجيب :

ـ والدى دبلوماسى ، ولقد عدنا إلى (مصر) مؤخرًا .

جعلت إجابته الضابط يعتدل فى احترام ، ويتجاوزه ، قائلاً :

ـ فليكن .

غمزت (نجوى) (مروة) ، عند هذه النقطة ، قائلة فى حماس خافت :

ـ ألم أقل لك ؟

« وماذا قلت لها ؟! »

سألها الطالب الجديد فجأة ، فارتبكت ، وتخضّب وجهها بحمرة الخجل ، وعجزت عن إجابة سؤاله ، إلا أن (مروة) أخرجتها من ارتباكها ، وهى تسأله فى اهتمام شديد ، أخجلها فيما بعد :

ـ أكنت تعانى من كابوس ما ؟!

ابتسم ابتسامة عذبة ، وفرك عينيه ، وهو يجيب :

ـ ليس إلى هذا الحد .. يمكنك اعتباره حلمًا مربكًا فحسب .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ معذرة .. نسيت تقديم نفسى .. أنا (أمير) .

هتفت (نجوى) مبهورة :

ـ (أمير) ؟! حقًّا ..

أجابها فى هدوء رصين :

ـ نعم .. (أمير محمود) .. طالب جديد فى الـ ....

قاطعته فى لهفة :

ـ نحن نعلم .

بدت عليه الدهشة لمقاطعتها ، ولكن (مروة) سألته فى اهتمام :

ـ لكنتك تبدو غريبة يا (أمير) .. أليس كذلك !!

وافقها بإيماءة من رأسه ، وهو يجيب :

ـ لم أولد أو أحيا صباى هنا .

هتفت (نجوى) فى حماس :

ـ هذا أمر طبيعى ؛ فوالدك ديبلوماسى ، ومن الطبيعى أن ...

قاطعتها (مروة) هذه المرة ، وهى تسأله :

ـ وهل كان حلمك مزعجًا بحق ؟!

لم تدر هى نفسها سر اهتمامها الشديد بحلمه هذا ، ولكنه بدا بسيطًا وتلقائيًا ، وهو يجيب :

ـ الواقع أنه بدا غريبًا فحسب .

غمغمت فى اهتمام :

ـ حقًا ؟! وكيف ؟!

بدا عليه التردُّد بضع لحظات ، حتى إنها شعرت بالخجل ، فتراجعت متمتمة فى توتر وحرج :

ـ معذرة .. لم أقصد أن ....

قاطعها بإشارة من يده ، قائلاً بلهجة مهذَّبة :

ـ لابأس .. ربما كان من الأفضل أن يشاركنى أحد هذا الأمر المربك .

بدت (نجوى) أشد لهفة منها ، وهى تسأله :

ـ أى أمر ؟!

التقط (أمير) نفسًا عميقًا ، وهو يعتدل فى مقعده أكثر ، ويقول :

ـ سأخبركما .

وبكلمات واضحة ، واثقة ، وأسلوب يشف عن ثقافة جيِّدة ، وذهن شديد الترتيب ، وراح يروى لهما حلمه ..

واتسعت عينا (نجوى) عن آخرهما ، فى دهشة كبيرة ..

أما (مروة) ، فقد انعقد حاجباها فى شدة ، وقلبها يخفق بمنتهى العنف ..

فالواقع أن الحلم كان عجيبًا ..

عجيبًا ومربكًا بالفعل ..

وإلى أقصى حد .

★ ★ ★

٢ ـ المخلـــوق ..

على الرغم من أن الضباب لا ينتشر فى المعتاد ، فى المناطق الصحراوية ، إلا أن تلك المنطقة أحاط بها ضباب عجيب ..

ضباب ثقيل ..

كثيف ..

محدود ..

ضباب بدا وكأن الغرض الوحيد من وجوده ، هو إخفاء ذلك الجسم المستدير ، الذى حلّق بنعومة مدهشة ، فوق رمال الصحراء ، وراح يهبط نحوها ، على نحو أشبه بسقوط قرص من الإسفنج ، على أرضية ناعمة ..

وفى هدوء شديد ، استقرّ الجسم المستدير فوق الرمال ، بوساطة ثلاثة أرجل معدنية ، ذات قواعد واسعة ، قبل أن تنفتح كوة مستديرة فى جانبه ، ويهبط منها سلم لامع ، أشبه بالزجاج المضىء ..

وعبر ذلك السلم ، انزلقت ثلاثة كائنات فضائية ..

كائنات من كوكب آخر ..

كوكب بعيد ..

بعيد للغاية ..

وفى اهتمام واضح ، راح الثلاثة يتحدثون معًا ، بلغة لا يعرفها كوكب الأرض كله ..

لغة ذات رنين مكتوم عجيب ..

وبعدها ظهر الكائن الرابع ..

ومع ظهوره ، انحنى الثلاثة الآخرون فى احترام وتبجيل ، يوحيان بأنه أعلى شأنًا منهم ..

بكثير ..

ولدقائق خمس ، راح الأربعة يتحدثون ، بنفس اللغة ، ذات الرنين المكتوم العجيب ..

وبعدها عاد أحد الكائنات الأولى إلى الجسم المستدير ..

وأغلقت الكوة خلفه ..

ثم راح يرتفع عن الأرض ..

ويرتفع ..

ويرتفع ..

حتى اختفى وسط الظلام والفضاء ؟؟

وعندئذ ، استدارت الكائنات الثلاثة المتبقية ..

الأعلى شأنًا ، والآخران ..

استدار ثلاثتهم نحوه ..

نحو (أمير) ..

« إنه يبدو لى حلمًا مضحكًا .. »

نطقت (نجوى) العبارة ، وثلاثتهم يسيرون فى ساحة الكلية ، فاتعقد حاجبا (أمير) فى توتر ، فى حين تساءلت (مروة) فى ضيق :

ـ ولماذا يبدو مضحكًا ؟

هزّت (نجوى) كتفيها ، قائلة :

ـ لست أدرى ، ولكنه يبدو لى أشبه بأفلام الخيال العلمى ، ذات الدرجة الثالثة ، التى نسخر منها دومًا .

هتفت (مروة) معترضة :

ـ لكنه ليس كذلك .. إنه ..

« أنا اتفق معك .. »

نطقها (أمير) فى توتر ، فالتفتت الاثنتان إليه فى دهشة ، ليتابع :

ـ سيبدو كذلك حتمًا ، لو أنه فيلم سينمائى ، ولكنه لم يبد لى كذلك أبدًا .

وصمت لحظة ، شرد خلالها بصره ، قبل أن يكمل ، فى توتر شديد :

ـ بل ولم يبد لى حتى أشبه بالحلم .

تضاعفت دهشتهما ، وهما تحدقان فيه ، قبل أن تتساءل (مروة) ، فى شغف قلق :

ـ كيف بدا إذن ؟!

تردَّد كثيرًا هذه المرة ، قبل أن يجيب فى عصبية :

ـ كحقيقة .

تساءلت ، فى قلق أكثر :

ـ وكيف هذا ؟!

بدت عليه الحيرة ، وهو يبحث عن الجواب المناسب ، قبل أن يقول :

ـ كنت وكأننى هناك . أراقبهم بنفسى .. أو ... أو ...

توتر أكثر وأكثر وهو يضيف :

ـ أو أقف بينهم .

لثوان ، حدقا فيه ؛ بمنتهى الدهشة ، قبل أن تهتف (نجوى) :

ـ لا .. هذا يتجاوز الحد .

التفتت إليها (مروة) بحركة حادة ، وكأنما أغضبها أن تقول هذا أمام (أمير) ، الذى هزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ أنت على حق مرة أخرى .. هذا يتجاوز الحد .

نطقها وهو يبدو بائسًا ، محبطًا ، على نحو أثار شفقة وتعاطف (مروة) إلى حد كبير ..

ولكنها لم تنبس ببنت شفة ..

فلسبب ما ، كانت تتعاطف كثيرًا مع (أمير) ..

ليس بسبب وسامته ، أو أناقته ..

أو حتى بسبب ذلك الشعور الجارف ، الذى تسلَّل على الرغم منها إلى قلبها ، وراح يزحف ليهيمن عليه كله رويدًا رويدًا ..

ولكن لأن جزءًا غامضًا من أعماقها ، كان يؤمن بأن ما رآه (أمير) ليس مجرَّد حلم إنه يتجاوز هذا ..

يتجاوزه على نحو ما ..

فالحلم ، مهما بلغت سخافته ، لن يورث مثله ذلك الشعور البائس المضطرب أبدًا ..

ولقد ظل هذا الأمر يشغلها ويؤرقها ، حتى بعد أن عادت إلى منزلها ..

ولسبب ما أيضًا ، راحت تربط بين حلم (أمير) ، وحلمها أو واقعها ، الذى سمعت خلاله والدها ، وهو يتحدَّث عن سفينة الفضاء ، والكائن الفضائى و ....

« أمى .. متى يعود أبى ؟! »

كان سؤالاً مباغتًا منها ، جعل أمها تتطلَّع إليها فى دهشة بالغة ، قبل أن تتساءل فى حذر :

ـ ولماذا تسألين ؟! إنك لم تحاولى أبدًا معرفة هذا من قبل ، فى كل المرات الـ ....

قاطعتها (مروة) فى توتر :

ـ ولكننى أريده بشدة هذه المرة .

بدت والدتها حذرة قلقة ، أكثر مما ينبغى ، وهى تسألها :

ـ تريدينه بشدة ؟! ولماذا ؟! ماذا حدث ؟!

ولم تحر (مروة) جوابًا ..

فهى لا تدرى كيف يمكن أن تخبر والدتها بما لديها !!

بل ، ولا تدرى حتى لماذا تريد والدها هذه المرة !

ما الذى يمكنها أن تخبره به ؟!

ماذا لديها لتقوله ؟!

أحنقها كل ذلك الغموض ، الذى يحيط بها طوال الوقت ، والذى تبغضه أشد البغض ، وحاولت أن تقاوم مشاعرها ، وهى تقول فى حدة :

ـ ينبغى أن يكون هنا .. إننا أسرته ، وعليه أن يولينا رعايته وعنايته .. هذا واجبه .

تطلَّعت إليها أمها بقلق أكثر ، قبل أن تميل نحوها ، وتربَّت على شعرها ، قائلة فى حنان :

ـ بالطبع يا (مروة) .. إنه واجبه تجاهنا ، وهو يبذل قصارى جهده ؛ للتوفيق بين واجبه تجاهنا ، وواجبه تجاه وطنه ووطننا .. ومهما بلغت مشاغله ، فهو يعود كل حين وآخر ، ليطمئن علينا ، وعلى أمننا وسلامتنا ، و ...

ولم تسمع (مروة) باقى كلمات أمها ..

لقد توقّف ذهنها كله عند كلمات بعينها ..

مهما بلغت مشاغله ، فهو يعود كل حين وآخر ..

يعود ..

يعود ..

« أمى .. لقد كان أبى هنا .. »

نطقتها بمنتهى الحزم ، وهى تواجه أمها ، وتتطلّع إلى عينيها مباشرة ، فارتبكت الأم ، وهى تغمغم مضطربة :

ـ هنا ؟! ماذا تعنين ؟!

بدت (مروة) صارمة ، وهى تجيب :

ـ أبى كان هنا أمس .. لم يكن حلمًا .. لقد سمعته يتحدّث فى الهاتف .

وأطلّت من عينيها نظرة غاضبة ، وهى تضيف :

ـ لقد كان هنا يا أمى .

وتطلّعت الأم إلى عينى ابنتها مباشرة ..

ولم تنبس ببنت شفة ..

كان من الواضح أنها تعانى صراعًا ما فى أعماقها ..

فى أعمق أعماق قلبها ..

وفكرها ..

وعقلها ..

صراع انحسم ، وهى تجلس على أقرب مقعد إليها ، قائلة فى استسلام :

ـ وماذا فى هذا ؟! إنه منزله .

كانت (مروة) تنتظر الجواب بلهفة ، وعلى الرغم من هذا ، فلم تكد تنطقه أمها ، حتى انتفض جسدها كله ، وعجزت ساقاها عن حملها ، فاستندت إلى الجدار ، وهى تغمغم ، بصوت منفعل مبحوح :

ـ إذن فقد كان هنا .

تطلّعت إليها الأم باستسلام بائس ، قبل أن تنهض ، وتلتقط سمّاعة الهاتف ، وتطلب رقمًا غير مألوف ..

رقم تابعته (مروة) ببصرها ، ولكنها لم تتعرّفه أبدًا ..

ولكن قلبها خفق فى عنف ، وعقلها يتوقّع الجواب ، قبل أن تقول أمها عبر الهاتف ، بنفس الاستسلام :

ـ (فكرى) .. (مروة) تعرف الحقيقة .. لم يعد بوسعى إخفاء الأمر عنها .. تعال فورًا .. لو أمكنك هذا .

ثم أنهت الاتصال ، وعادت تجلس على مقعدها فى استسلام ، فسألتها ابنتها ، بنفس الصوت المبحوح :

ـ الهاتف لم يكن معطلاً .. أليس كذلك ؟!

هزّت الأم رأسها نفيًا ، وغمغمت فى خفوت :

ـ والدك رفع سمّاعة هاتف حجرة النوم ، وطلب منى أن أخبرك بأمر العطل .. كانت فرصتنا الوحيدة هى أن تتصوّرى أن الأمر كله مجرّدد حلم .

سألتها (مروة) ، والمكان يدور حولها :

ـ وكيف عرف ؟!

ابتسمت ابتسامة حانية على شفتى الأم ، وهى تجيب :

ـ والدك حاد السمع ، ولقد التقط صوت عودتك إلى الفراش ، وأدرك أنك سمعت محادثته الهاتفية .

غمغمت (مروة) :

ـ كنت تعرفين رقم هاتفه الخاص طوال الوقت .. أليس كذلك ؟!

هزّت الأم رأسها نفيًا ، وقالت :

ـ إننى لم أتحدث إليه ، لو أنك تصوّرت هذا .. لقد اتصلت بجهاز

إجابة آلى ، وأمليته ما أريد .. ولست أدرى حتى ما إذا كان هذا الجهاز فى مكتبه ، أم أنه هناك ما يبلغه باتصالاتنا عند الضرورة .

تمتمت (مروة) ، وقد بلغ خفوت صوتها منتهاه :

ـ المهم أنه سيعلم الآن .

لم تنطق إحداها بعدها بحرف واحد ، لأكثر من ربع ساعة كاملة ..

كل ما حدث ، هو أن (مروة) لم تعد قادرة على الوقوف ، فاتخذت الأريكة المجاورة ، وجلست عليها صامتة ، و ...

وفجأة ، انفتح باب المنزل ..

ودخل والدها ..

وبكل لهفة الدنيا ، هتفت الأم :

ـ (فكرى) ؟! لقد كنت قريبًا .. أليس كذلك ؟!

أجابها ، وهو يتجه ببصره إلى (مروة) مباشرة :

ـ كنت فى طريقى إلى هنا ، عندما أبلغونى بالأمر .

تطلّعت إليه (مروة) بعينين دامعتين ، وهو يتجه نحوها ، ويجلس إلى جوارها على الأريكة ، ثم يقول :

ـ كنت أحاول حمايتكما فحسب .. ما تجهلانه لا يمكن أن يؤذيكما بالتأكيد ..

خفضت عينيها ، متمتمة :

ـ أعلم هذا .

ضمها إليه فى حنان ، وهو يقول :

ـ حياتى شديدة التعقيد ، وأمك تعرف مدى خطورتها ، ولم نشأ أن نقحم مشاعرك الرقيقة فى الأمر ، و ....

قاطعته فجأة :

ـ أبى .. لدى ما أخبرك به .

ابتسم ابتسامة أكثر حنوًا ، وهو يقول :

ـ كلى آذان مصغية يا بنيتى .

ترددَّ لحظة ، قبل أن تقول :

ـ إنه .. إنه يتعلَّق بما سمعتك تتحدَّث عنه ..

سألها ، فى شىء من الاهتمام :

ـ ألديك أية معلومات ؟!

قالت فى سرعة :

ـ ليس معلومات .

وتردَّدت لحظة ، قبل أن تضيف :

ـ إنه حلم .

تراجع رأس والدها ، وهو يهتف فى دهشة :

ـ حلم ؟!

كانت تخشى أن يهزمها توترها وقلقها ، فينعقد لسانها ، وتعجز عن قول ما لديها أمام والدها ، لـذا فقد حسمت أمرها ، واندفعت تروى له كل شىء ..

وبكل التفاصيل ..

فى البداية ، تصوَّرت أن رد فعل والدها ، لن يختلف عن رد فعل (نجوى) ، وأنهما قد يشعران أن الأمـر مضحك ، بأكثر مما هو مهم ، لذا فقد أدهشتها تلك النظرة الصامتة التى تبادلاها ، قبل أن يسألها والدها بمنتهى الاهتمام :

ـ ومتى حدث هذا ؟! متى رأى زميلك (أمير) ذلك الحلم ، الذى بدا له كالحقيقة .

أجابته فى سرعة :

ـ فى اللحظة التى استوقفنا فيها العسكريون .

انعقد حاجبا والدها فى شدة ، ونهض مـن مقعده ، وتحرَّك فى المكان بضع لحظات ، قبل أن يغمغم ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ فى نفس الدائرة إذن !! هذا قد يعنى الكثير .

ثم التفت إليها ، قائلاً فى حزم :

ـ أريد أن ألتقى بزميلك هذا .

سألته فى لهفة واهتمام :

ـ هل تعتقد أن حلمه ..

قاطعها ، قبل أن تلقى سؤالها :

ـ إنها ليست أوّل حالة لدينا .

اتسعت عيناها فى دهشة ، وهى تسأله :

ـ أهناك آخرون ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، قبل أن يتطلّع إلى عينيها مباشرة ، ويجيب :

ـ ولكن ليس بهذا الوضوح .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، فى حين انعقد حاجبا أمها ، وهى ترمقه بنظرة عتاب ، تجاهلها هو تمامًا ، وهو يعود للجلوس إلى جوار (مروة) ، قائلاً :

ـ فلسبب ما ، ربما يرتبط بتكنولوجيا شديدة التطوّر ، أو بقدرات فوق طبيعية ، نجهل كينونتها ، استطاع زميلك هذا ، بوضوح يفوق الآخرين ، أن يلتقط موجات عقل بعض الكائنات الفضائية ، التى هبطت منذ ما يقرب من شهر ، فى المنطقة التى ستوقفكم الصكريون عندها .

قالت (مروة) فى دهشة :

ـ منذ شهر ؟! ولكن شيئًا لم يحدث ، قبل صباح أمس .

تنهّد الوالد ، قائلاً :

ـ لم نكن نعلم أين حدث الهبوط بالضبط .

تساءلت (مروة) ، فى حذر شديد :

ـ ثم علمتم ؟!

أشار الوالد بيده ، مجيبًا :

ـ مع الهبوط الثالث ، الذى رصدتـه وسائلنا الجديدة ، التى عملنا على تركيزها حول المنطقة كلها ، و ...

توقف فجأة عن الاستطراد ، والتفت إليها ، قائلاً :

ـ ولست أظن أنه بإمكانى أن أخبركما بالمزيد .

حدّقت (مروة) فى وجهه بدهشة حائرة ، وكأنما يعجز عقلها عن استيعاب هذا الأمر بأكمله ، أو كأنه لا يبدو شبيهًا بالحقيقة ، من قريب أو بعيد ـ فابتسم والدها ، فى شىء من التوتر ، قائلاً :

ـ هذا يشبه أفلام الخيال العلمى ، التى لاتحبينها أبدًا .. أليس كذلك ؟!

هزّت (مروة) رأسها ، وهى تغمغم بصوت مبحوح ، من فرط الانفعال :

ـ لم أعد أدرى أين الفاصل ، بين الحقيقة والخيال !

نهض والدها مرة أخرى ، وتطلّع إليها فـى صمت لبعض الوقت ، قبل أن يجيب فى حزم شديد :

ـ زميلك (أمير) .

تطلّعت إليه حائرة ، وكأنما لم تستوعب الموقف كله ، فتابع بنفس الحزم الشديد :

ـ لابد وأن ألتقى به ، وأن يروى تفاصيل حلمه هذا لعدد من المتخصصين ، و ....

« مستحيل ! »

قاطعته (مروة) بهذا الهتاف العصبى ، الذى جعله ووالدتها يحدقان ، فيها بمنتهى الدهشة ، قبل أن يسألها هو :

ـ ولماذا مستحيل !

قالت بنفس العصبية :

ـ سيبدو الأمر كما لو أننى قد كشفت سره ، الذى ائتمنى عليه ، أنا وزميلتى (نجوى) فقط .

انعقد حاجبا الوالد ، وهو يقول فى انتباه :

ـ (نجوى) تعلم أيضًا .

هتفت بعصبية أكثر :

ـ وماذا فى هذا ؟!

التقط والدها نفسًا عميقًا ، وهو يتطلّع إليها طويلاً فى صمت ، قبل أن يتبادل نظرة أخرى مع أمها ، ثم يربّت على كتفها قائلاً :

ـ لاشىء يا (مروة) .. لاشىء يا بنيتى .. اهدأى .. ربما كان الأمر كله مجرّد حلم .

سألته فى توتر بالغ :

ـ فماذا لو لم يكن كذلك ؟!

دفع الأب ابتسامة هادئة إلى شفتيه ، وهو يقول :

ـ لن يضار أحد يا (مروة) .. صدقينى .. لن يضار أحد أبدًا .

نطق كلماته فى هدوء واثق ..

إلا أنها لم تشعر أبدًا بالهدوء ..

أو بالثقة ..

وطوال الليل ، لم يغمض لها جفن ..

لقد ظلت تتساءل عما يمكن أن يفعله والدها ، مع (أمير) أو (نجوى) ..

وتتساءل ..

وتتساءل ..

حتى أشرقت الشمس ..

وفى الموعد اليومى المعتاد ، استقلّت الحافلة الخاصة بالكلية ، ولم تكد تلمح (أمير) و (نجوى) داخلها ، حتى اندفعت نحوهما ، وسألت الأولى فى اهتمام شديد :

ـ (أمير) .. أأنت بخير ؟!

أطلّت الدهشة من وجهه وعينيه ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. لمذا تسألين ؟!

انعقد حاجبا (نجوى) ، وهى تشير بيدها ، قائلة فى خبث :

ـ ربما لأنها لم تشعر حتى بوجودى .

جلست (مروة) على المقعد المجاور لهما ، وهى تغمغم فى ضيق :

ـ ربمـا .

هتفت (نجوى) ضاحكة :

ـ هل سمعت ما قالته ؟!

لم تتوقّف عن التعليق على الأمر لحظة واحدة ، بعد انطلاق الحافلة ، وابتسم (أمير) ابتسامة هادئة راقية ، وهو يستمع إليها فى صمت ، فى حين بدت (مروة) واضحة الضيق والتوتر ، والحافلة تنطلق عبر الطريق الصحراوى ، و ....

« لا .. ليس مرة أخرى .. »

هتفت (نجوى) بالعبارة ، عندما لمحت من النافذة ذلك العسكرى ، الذى يستوقف الحافلة ، قبل أن تضيف فى غضب :

ـ ماذا يتصوروننا ؟! مجموعة من الإرهابيين ، أم طلاب كلية للقتلة المحترفين .

غمغمت (مروة) فى ضيق متوتر :

ـ لا عليك .. إنهم يؤدون واجبهم فحسب .

مع آخر حروف كلماتها ، صعد الضابط والجنديان أنفسهم إلى الحافلة ، ولكن أبصارهم مشطتها فى سرعة هذه المرة ، قبل أن يتجه الضابط نحو (أمير) مباشرة ، ويقول فى لهجة ، أرادها مهذّبة ، إلا أنها حملت ، على الرغم منه ، الكثير من الصرامة :

ـ (أمير محمد روكان) .. أليس كذلك ؟!

ارتفع حاجبا (نجوى) فى دهشة ، فى حين بدا الغضب على وجه (مروة) ، و(أمير) يجيب فى توتر :

ـ نعم .. هو أنا ..

شد الضابط قامته ، وهو يقول :

ـ أرجو أن تتبعنا من فضلك .. نريدك أن تجيب بعض التساؤلات البسيطة ، وسنوصلك بعدها إلى كليتك سالمًا .

ردَّد الشاب ، فى اضطراب متوتر :

ـ تساؤلات ؟! أية تساؤلات ؟!

شد الضابط قامته أكثر ، واكتسب صوته المزيد من الصرامـة ، وهو يجيب بلهجة عسكرية صرفة :

ـ ليست عندى أدنى فكرة .. إننى أنفذ أوامر رؤسائى فحسب .

بدت نظرات (أمير) عصبيـة مضطربـة ، وهو ينهض ويسير معهم ، إلى خارج الحافلة ، ورأتهم (نجوى) يقودونه إلـى سيارة مدنية سوداء ، ذات زجاج داكن ، يمنع رؤية مـا بداخلهـا ، فهتفت بكل الدهشة :

ـ ماذا يريدون منه ؟! إن والده دبلوماسى !!

أما (مروة) ، فقد عضت شفتيها ، بكل غضب الدنيا ، وهى تتمتم :

ـ لن أغفر لك هذا يا أبى .. لن أغفر لك أبدًا ..

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها عبارتها ، كان (أمير) يدلف إلى المقعد الخلفى للسيارة السوداء الكبيرة ، وهو يغمغم فى اضطراب :

ـ ولكن ماذا فعلت ؟! إننى لم ....

قاطعه صوت هادئ ، من داخل السيارة ، يقول :

ـ اهدأ يا فتى .. لن يؤذيك أحد هنا .

حدَّق (أمير) فى الرجل القوى ، هادئ الملامح ، أنيق الملبس ، الذى يجلس داخل السيارة ، والذى تابع :

ـ بل على العكس .. إننا سنعمل على حمايتك .

لم يدر (أمير) ماذا يقول بالضبط ، إلا أنه جلس إلى جوار ذلك الرجل ، وهو يغمغم :

ـ ماذا تريدون منى ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ تفاصيل حلمك .

هتف (أمير) فى دهشة مذعورة :

ـ حلمى ؟!

مال الرجل نحوه ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ دعنى أقدِّم لك نفسى .. العقيد (فكرى) .. من الأمن المصرى ..

واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ ووالد (مروة) .. زميلتك (مروة) .

هتف (أمير) ، بأنفاس مبهورة :

ـ حقًا ؟!

تراجع العقيد (فكرى) فى مقعده، وتابع بلهجة ودود، وبابتسامة كبيرة، توحى بالثقة :

ـ لم يكن من الصحيح أمنيًا، أن أخبرك بهذا، فهل تعلم لماذا فعلت ؟!

تمتم (أمير)، بنفس الأنفاس المبهورة :

ـ لماذا ؟!

أجابه، وابتسامته تتسع أكثر وأكثر :

ـ لأثبت لك إننا لن نؤذيك أبدًا .

كان أسلوبه المباشر هذا ناجحًا إلى حد مدهش، فقد جعلت كلماته الشاب يسترخى فى مقعده، والسيارة تنطلق بهما، وهو يغمغم :

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد .

ربّت العقيد (فكرى) على كتفه، فى هدوء شديد، قبل أن يسأله فى جدية واهتمام :

ـ والآن، قصّ على تفاصيل حلمك .

التقط (أمير) نفسًا عميقًا، قبل أن يسأله فى توتر :

ـ أى حلم ؟!

بدا الضيق فى صوت العقيد (فكرى)، وهو يقول فى شىء من الصرامة :

ـ هل ستبدأ العبث معنا ؟!

هزّ (أمير) راسه فى قوة، قائلاً :

ـ مطلقًا يا سيّدى .. ولم تراودنى حتى هذه الفكرة، ولو لحظة واحدة .. الواقع أننى كنت أسألك : أى حلم ترغب فى معرفته .. ذلك الذى راودنى صباح أمس، أم صباح اليوم ؟!

استدار إليه العقيد (فكرى) بحركة حادة، وحدّق فى وجهه لحظة بدهشة بالغة، قبل أن يسأله :

ـ أهناك حلم آخر ؟!

أومأ (أمير) برأسه بمنتهى التوتر، فانعقد حاجبا العقيد (فكرى)، وهو يسأله :

ـ أكان بنفس الوضوح ؟!

تضاعف توتر (أمير) عدة مرات، وهو يجيب فى صوت خافت، وكأنما يمنعه انفعاله من النطق :

ـ بل أكثر وضوحًا .

ثم ازدرد لعابه، وبدا صوته أقرب إلى البكاء، وهو يضيف :

ـ ففى هذه المرة فهمت لغتهم .

وأدار عينين معذبتين إلى العقيد (فكرى) مكملاً :

ـ فهمت كل ما يقولوه .

وتراجع العقيد (فكرى) فى حدة ..

فما سمعه من الفتى كان مفاجأة ..

مفاجأة مدهشة .

* * *

٣ ـ اختفـــاء ..

« لا .. لا يمكن أن أروى النص الفعلى لحوارهم !! »

نطق (أمير) العبارة فى توتر ، ردًا على سؤال أحد الخبراء ، الذين أحاطوا به ، داخل قاعة خاصة ، فى جهة أمنية عليا ، ثم هزّ رأسه فى قوة ، وهو يتابع ، فى شىء من العصبية :

ـ ولكننى أعرف فحوى حديثهم .

سأله أحد الرجال ، فى لهجة بدت صارمة ، على الرغم من محاولتهم تخفيف التوتر المحيط بالأمر كله .

ـ وكيف تعرف هذا ، دون أن تفهم لغتهم ؟!

بدت حيرة شديدة على وجه (أمير) ، وهو يجيب :

ـ لست .. لست أدرى .

هتف رجل آخر ، فى شىء من الحدة :

ـ وكيف هذا ؟!

تدخَّل العقيد (فكرى) ، قائلاً فى حزم :

ـ من الواضح أيها السادة أنـه هناك اتصال فكرى ، قد حدث بوسيلة ما ، بين تلك الكائنات الفضائية ، وهذا الشاب ، فى لحظة مروره بمنطقة هبوطهم الأولى .

اعتدل رجل طويل ، وقال فى صرامة :

ـ ولماذا هو بالذات ؟!

أجابه العقيد (فكرى) فى سرعة :

ـ لأنه كان نائمًا .

التفت إليه (أمير) فى دهشة ، شاركه إياها الجميع ، فتابع فى حزم :

ـ لا توجد دراسة واحدة مؤكَّدة ، حول قدرات العقل البشرى أثناء النوم ، ولكن البعض يشير إلى أنه قد يصبح أكثر حساسية ، وأكثر قدرة على استقبال المؤثرات العقلية الخارجية ، لو أتيحت له الظروف المناسبة لهذا(*) .

ظهر رجل أكبر سنًا ، يبدو من هيئته وأسلوبه الواثق ، أنه أكبر رتبة ومكانة من الآخرين ، وقال فى هدوء عجيب :

ـ لو أن الأمر كذلك ، فهذا يعنى أنك مصدر معلوماتنا الوحيد أيها الشاب .

تطلَّع إليه (أمير) فى صمت قلق ، فاتجه الرجل نحوه ، وجلس على المقعد المجاور له ، وهو يقول فى هدوء أكثر :

ـ وواجبك يحتم عليك ، فى هذه الحالة ، أن تعتصر كل خلية فى مخك ، لتمنحنا ما نريد .

(*) حقيقة .

غمغم (أمير) :

ـ سأفعل كل ما تطلبونه .

ابتسم الرجل ، وتراجع فى مقعده ، فى استرخاء مدهش ، وهو يقول :

ـ عظيم يا (أمير) .. عظيم .. استعدادك للتعاون يثلج صدورنا بحق ، ولكن هناك مشكلة .

ثم مال نحوه ، وأشار إلى رأسه ، مضيفًا بابتسامة هادئة :

ـ فعقلك الواعى لن يمكنه أن يتذكَّر ما هو أكثر من هذا .

انعقد حاجبا العقيد (فكرى) ، وهو يتطلَّع إلى الرجل الهادئ فى توتر حذر ، فى حين غمغم (أمير) فى عصبية :

ـ ماذا تعنى ؟!

ابتسم الرجل ابتسامة أكبر ، وهو يتراجع فى مقعده مرة أخرى ، ويعقد كفيه أمام صدره ، قائلاً :

ـ التنويم المغناطيسى .

ازداد انعقاد حاجبى العقيد (فكرى) فى شدة ، فى حين انتفض جسد (أمير) فى عنف ، هاتفًا :

ـ التنويم المغناطيسى ؟! ماذا تعنى يا سيِّدى ؟!

اعتدل الرجل بحركة مفاجئة ، انتفض لها جسد (أمير) مرة أخرى ، ثم أجاب فى صرامة مباغتة :

ـ الخضوع للتنويم المغناطيسى يحرر الذكريات المحتجزة فى عقلك الباطن ، ويسمح لك باسترجاعها ، وبأدق التفاصيل ، فإذا ما وافقت على الخضوع له ، قد يمكنك أن تروى لنا ما دار بين تلك الكائنات الفضائية ، فى دقة ووضوح .

قال العقيد (فكرى) ، عاجزًا عن إخفاء توتره :

ـ ألا يمكننا أن نعرف ما لديه أولاً يا سيدى ؟!

أدار الأكبر رتبة عينيه إليه فى صرامة ، فازدرد لعابه ، متمتمًا :

ـ أعنى أننا قد نجد فيه ما يكفينا ، فلا نحتاج إلى جلسات التنويم المغناطيسى هذه !

هتف (أمير) فى سرعة ، وكأنه يتشبث بالاقتراح :

ـ سأخبركم كل ما لدى .

انعقد حاجبا الرجل بضع لحظات فى شدة ، ثم عاد يعقد ساعديه أمام صدره ، قائلاً :

ـ فليكن .

ازدرد (أمير) لعابه فى صعوبة ، من فرط توتره ، قبل أن يقول :

ـ إنهم هنا من أجل الأمير .

هتف أحد الرجال فى دهشة :

ـ من أجل من ؟!

ازدرد (أمير) لعابه مرة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ من أجل الأمير .. أمير كوكبهم .

سأله أكبرهم رتبة ، فى اهتمام شديد :

ـ وماذا عنه ؟!

بدا (أمير) حائرًا متوترًا ، وهو يبلل شفتيه الجافتين بلسانه ، قائلاً :

ـ قوة ما استعمرت كوكبه ، ووسيلتها الوحيدة للوصول إلى شرعية الحكم ، هى القضاء عليه ؛ حتى تفنى العائلة الحاكمة كلها .

سأله أحد الرجال ، فى اهتمام شديد :

ـ هل تعنى أنه يختفى هنا ؟!

شرد بصر (أمير) ، على نحو عجيب ، وهو يقول :

ـ جيشه المندحر صنع خلايا قوية للمقاومة ، تتطور ، وتزداد قوة فى كل يوم يمضى ، وينبغى له أن يختفى تمامًا ، حتى تحين اللحظة المناسبة ، ليعود إلى كوكبه ، ويقود جيش المقاومة ، فى ثورة تحرير حاسمة .

كرر الرجل نفسه ، فى اهتمام أكثر :

ـ إنه يختفى هنا إذن .

واندفع آخر يتساءل ، فى لهفة بالغة :

ـ فى أية هيئة يختفى ؟! فى أى شكل ؟!

شرد بصر (أمير) أكثر وأكثر ، وزاغت عيناه على نحو عجيب ، وراح عرق بارد يتصبَّب على جبينه ، وهو يغمغم :

ـ فى شكل آدمى .. سكان كوكبه لهم قدرة خاصة على الـ ... الـ ...

ازداد العرق البارد غزارة ، على جبين (أمير) ، وتصبَّب على وجهه كله ، وجسده يرتجف على نحو عجيب ، وبدا من الواضح أنه يبذل جهدًا رهيبًا ، لدفع الكلمات خارج شفتيه ، ولكنها تجاهد للبقاء فى حلقه ، و ...

فجأة ، تجمَّد بصر أحد الرجال فى المكان ، واعتدل فى وقفة صارمة مباغتة ، جعلتا زميله المجاور يسأله فى دهشة :

ـ ماذا دهاك يا رجل ؟!

ولكن الرجل انتزع مسدسه ، فى سرعة كبيرة ، وأداره نحو رأس (أمير) مباشرة ، و ....

وهنا وثب العقيد (فكرى) ..

وبكل خفته وقوته ..

ومع وثبته ، دوت فرقعة مكتومة فى المكان ، انقطع إثرها التيار الكهربى بغتة ، وساد الظلام داخل القاعة الكبيرة ، فى قوة ذلك المبنى الأمنى الشهير ..

ثم دوت رصاصة وسط الظلام ..

رصاصة تألَّق وميضها لحظة وسط الظلام ، واقترن بصوت قتال عنيف ، وبصرخة الأكبر رتبة :

ـ أغلقوا الأبواب فورًا .. لاتسمحوا لأى كائن بالخروج من هنا .

لم تمض لحظات على صرخته ، حتى أضيئت الأنوار الاحتياطية ، وغمر الضوء المكان ..

واتسعت العيون كلها فى ذهول ..

فوسط القاعة ، كان الجميع هناك ..

فيما عدا ثلاثة ..

الرجل الذى كان يطلق النار ..

و (أمير) ..

والعقيد (فكرى) ..

فبوسيلة ما ، وعلى الرغم من الأبواب المغلقة بإحكام ، ورجال الأمن فى كل مكان ، اختفى الثلاثة ..

تمامًا ..

ودون أدنى أثر ..

★ ★ ★

« هيه .. نحن هنا .. »

هتفت (نجوى) بالعبارة، فى مرح باهت، وهى تلكز (مروة) بمرفقها، داخل حافلة الكلية، فى الصباح التالى، فالتفتت إليها (مروة) بعينين محمرتين منتفختين، وهى تقول فى حزن شديد :

ـ لست فى مزاج يسمح بالمرح اليوم .

تلفّتت (نجوى) حولها، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد، ثم مالت نحوها، هامسة :

ـ بسبب غياب (أمير) .. أليس كذلك ؟!

هتفت (مروة) فى مرارة :

ـ بل بسبب هذا الأسلوب السخيف .

بدا لحظة وكأنها ستكتفى بهذا القول، إلا أنها لم تلبث أن أضافت فى عصبية :

ـ كيف يختفى (أمير) على هذا النحو، بعد اصطحابهم له أمس ؟! المفترض أننا بلد حر، وفى أى بلد حر، لاينبغى أن يتم إلقاء القبض على مواطن، دون تحديد تهمته، ودون معرفة مكان احتجازه .

تراجعت (نجوى) فى دهشة، لم تلبث أن تحوّلت إلى شىء من الخبث، وهى تقول :

ـ لاتحاولى إقناعى بأنك قد أصبحت شديدة الاهتمام بالأمور السياسية فجأة .

ثم عادت تميل نحوها، وتهمس فى مرح :

ـ الأكثر منطقية هو أنه نداء قلب .

« كلّا .. »

هتفت (مروة) بالكلمة فى حدة، ثم حاولت الاسترخاء فى مقعدها، ومتابعة الطريق بنظراتها الخاوية، وهى تعض شفتيها فى مرارة، ولسانها عاجز عن الإفصاح عما يعتمل فى نفسها ..

لماذا فعل والدها هذا ؟!

وأين اختفى مع (أمير) ؟!

أين ؟!

وكان كل ما تعنيه بالاختفاء فى ذهنها، هو أنها، ومنذ صباح الأمس، لم تسمع كلمة واحدة عن والدها، أو عن (أمير) ..

وربما كان هذا من حسن حظها ..

فهى لم تكن تعلم أن الأمر يتطوّر إلى اختفاء فعلى ..

اختفاء غامض عجيب ..

للغاية !

★ ★ ★

« أريد أجوبة واضحة، بأى ثمن .. »

ألقى رجل الأمن الأكبر رتبة العبارة ، فى صرامة بالغة ، داخل تلك الجهة الأمنية العليا ، وهو يزيح كل تقارير الفحص من أمامه فى حدة ، وقبل أن يضيف :

- إننا أعلى جهة أمنية فى البلاد ، ودخول مبناتا ، أو الخروج منه ، أمر يخضع لإجراءات مشددة ، وتأكيدات قوية ، فكيف يمكن أن يختفى ثلاثة رجال هكذا ، فجأة ، وأمام أعيننا جميعًا ، خلال ثوان معدودة ، دون أن يتركوا خلفهم أدنى أثر .

تبادل الرجال أمامه نظرة متوترة ، قبل أن ينتحنح أحدهم ، قائلاً :

- خبراؤنا لم يعلموا حتى لماذا انقطع التيار الكهربى يا سيِّدى .. لقد فحصوا الشبكة كلها ، ولم يجدوا سببًا واحدًا لهذا .

انعقد حاجبا الرجل ، وتراجع فى مقعده ، وهو يحك ذقنه فى توتر ، قبل أن يتساءل :

- وماذا عن كاميرات المراقبة ؟!

ماذا سجَّلت ، فى اللحظات التى سبقت انقطاع التيار ، واختفاء رجلينا ، وذلك الشاب الغامض ؟!

عاد الرجال يتبادلون نفس النظرة المتوترة ، ثم قال أحدهم وهو يشير بيده إشارة خاصة :

- الأفضل أن ترى بنفسك يا سيِّدى .

مع إشارته ، أظلم آخر الحجرة ، فى حين ضغط ثالث زر تشغيل الفيلم ، الذى التقطته كاميرات المراقبة للموقف كله ..

وعلى الشاشة الكبيرة ، ظهر الرجال ، وهم يستجوبون (أمير) ، حتى وصلوا إلى اللحظة ، التى سيفصح فيها عن هوية ذلك الأمير الفضائى ، و ....

وعندئذ ، بدا وجه زميلهم (أنور) عجيبًا !!

عجيبًا للغاية !

ففجأة ، ودون سابق إنذار ، تجمَّدت نظراته ، وامتقع وجهه ، وتراجع فى وقفة ثابتة ، فى حين كان العقيد (فكرى) يحدِّق فيه بنظرات ثاقبة ، توحى بأن ما يحدث قد جذب انتباهه بشدة ..

بل بمنتهى الشدة ..

ثم انتزع (أنور) مسدسه ، وأداره نحو (أمير) ..

وعلى الرغم من أن الشاب ، الذى تملَّكه هلع رهيب ، كان يجلس فى منتصف المسافة ، بين (أنور) و(فكرى) ، فقد وثب هذا الأخير كالفهد ، وثبة تتجاوز بمرونتها ما يمكن أن تصنعه سنوات عمره ، التى تبلغ الأربعين ، و ...

وانقطعت الأضواء كلها بغتة ..

ومع انقطاعها ، لم تتوقَّف كاميرات المراقبة عن العمل ؛ لأنها تتصل كلها بمصدر كهربى مختلف ..

ولكنها لم تنقل سوى الظلام ..

ظلام دامس ، استغرق ثوان قليلة ، قبل أن تعود الأضواء إلى العمل ، وتظهر الصورة مرة أخرى ..

ولكن دون الأفراد الثلاثة ..

(أنور) ، و(فكرى) .. و(أمير) ..

وكان الموقف أكثر إثارة للحيرة والدهشة ..

وبكل الحيرة ، غمغم الأكثر رتبة :

ـ مستحيل !

ونقر بأصابعه سطح مكتبه بضع لحظات ، قبل أن يتابع فى حزم :

ـ من الواضح أننا نواجه أمورًا تفوق إدراكنا وإمكانياتنا يا رجال .. أو أننا نواجه تكنولوجيا شديدة التطوّر ، تتجاوز كل ما عرفناه ، أو حتى تخيلناه طوال عمرنا .

ثم نهض من مقعده ، وشبك كفيه خلف ظهره ، وهو يتحرك فى الحجرة ، مواصلاً ، على نحو يبدو وكأنه يحدّث نفسه وليس هم :

ـ فبوسيلة ما ، التقط ذلك الشاب ما دار فى عقول كائنات الفضاء ، وأدرك ما أتوا من أجله .. بل ولو صدقنا قصته ، فهو يعرف هوية أميرهم ، الذى يختفى من غزاة كوكبه هنا ..

وصمت لحظة ، انعقد خلالها حاجباه فى شدة ، ثم استطرد :

ـ واعتبارًا من هذه النقطة ، وبغض النظر عن فارق التكنولوجيا

والتطوّر ، فالأمور ستسير وفقًا لما يحدث هنا ، فى أية ظروف مماثلة .. هناك من سيسعى خلف (أمير) ؛ لكشف هوية الأمير .

غمغم أحد الرجال :

ـ ومن سيسعى خلفه ، لمنعه من كشف هوية ذلك الأمير أيضًا .

أشار كبيرهم بسبّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .

اندفع آخر يقول :

ـ وهذا ما فعله (أنور) .. أعنى ما حاول أن يفعله ..

أضاف ثالث ، فى شىء من الحماس :

ـ بالتأكيد ؛ ففى اللحظة التى هم فيها ذلك الشاب ، بالإفصاح عن هوية الأمير الفضائى ، استيقظ جهاز إنذار ، تم زرعه فى عقل زميلنا (أنور) بوسيلة ما ، فسحب مسدسه ، كما رأينا جميعًا منذ لحظات ، وحاول القضاء عليه .

انعقد حاجبا كبيرهم ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ وهذا يعنى أنهم قد نجحوا فى اختراق عقولنا ، وتجاوز نظم أمننا ، على أعلى مستوى شخصى ، بوسائل نجهل طبيعتها تمامًا ، بحيث أصبحوا يمتلكون السيطرة الكاملة على الموقف ، ويمكنهم تحريك الأمور ، فى الاتجاه الذى يحقق لهم أكبر استفادة ممكنة .

تبادل الرجال نظرة عصبية ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ أيعنى هذا أيضًا أننا قد أصبحنا عاجزين عن مقاومتهم ؟!

أشار كبيرهم بذراعيه كليهما ، وهو يجيب فى مرارة :

ـ إننا عاجزون حتى عن معرفة ما أصاب رجلينا ، والشاب الذى كنا نستجوبه ، و ...

قاطعه رنين هاتفه الشخصى المباغت ، فالتقطه بحركة سريعة ، ورفعه إلى أذنه ، قائلاً :

ـ ماذا هناك ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدثّه ، قبل أن يقول فى حزم متوتر :

ـ سنصل على الفور .

ثم أنهى المحادثة ، وأعاد الهاتف إلى جيبه ، وهو يرفع عينيه إلى رجاله ، فى توتر مضاعف ، قائلاً :

ـ لقد عثروا عليهم ..

وكانت مفاجأة قوية ..

للجميع ..

* * *

لم تدر (مروة) ، لماذا انقبض قلبها بغتة ، على هذا النحو العجيب .. كانت تستقل حافلة الكلية ، عائدة إلى منزلها ، مرورًا بتلك المنطقة ، التى ما زال العسكريون يقيمون حولها سياجًا بشريًا ، عندما أصابتها فجأة تلك الحالة العجيبة ..

الحالة ، التى جعلت جسدها كله ينتفض ، ودفعت زميلتها (نجوى) إلى أن تسألها فى دهشة قلقة :

ـ ماذا حدث ؟!

هزّت (مروة) رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ لست أدرى .. إنه إنه شىء ما ..

لم تستطع إكمال عبارتها ، وهى تشيح بوجهها عبر النافذة ، فتمتمت بصوت مختنق ، وهى تشير إلى صدرها :

ـ هنا .

كان صوتها شديد الخفوت ، وعلى الرغم من هذا ، فقد هتفت (نجوى) مستنكرة ومندهشة :

ـ هنا ؟! فى قلبك ؟!

أومأت (مروة) برأسها إيجابًا ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فتابعت (نجوى) ، فى شىء من الشغف :

ـ وما اسم ذلك الشىء ؟! الحب ؟!

غمغمت (مروة) :

ـ كفى سخافة !

مالت (نجوى) نحوها ، وهمست :

ـ ما زلت تفكرين فى (أمير) .. أليس كذلك ؟!

انفرجت شفتا (مروة) ، وهمّت بقول شىء ما ، وهى تتابع ببصرها ذلك النشاط المتزايد ، فى تلك المنطقة الصحراوية ، البعيدة من الطريق الرئيسى ، و ...

وفجأة ، انتفض قلبها ..

بل انتفض كيانها كله ..

وبمنتهى العنف ..

هذا ؛ لأن بصرها قد وقع عليهم هناك ..

على (أمير) ..

ووالدها ..

وباقى الرجال ..

لم تكن المسافة ، التى تفصلها عنهم ، تسمح برؤية التفاصيل ..

أو حتى بالرؤية الواضحة ..

ولكنها رأتهم ..

وعرفتهم ..

وميّزتهم جيّدًا ..

وبكل الانفعالات الجارفة ، التى زلزلت كيانها ، هتفت :

ـ إنهم هم !!

بدا وكأن (نجوى) قد وثبت إلى الأمام ، وهى تهتف فى لهفة :

ـ من ؟!

ارتجف صوت (مروة) مع سبّابتها ، وهى تشير بعيدًا ، مجيبة :

ـ أبى .. (أمير) .. والآخرون .. هل ترينهم ؟!

حاولت (نجوى) أن تستنفر كامل بصرها ، وهى تمده إلى أقصى مداه ، قائلة فى حيرة :

ـ كلاّ بالطبع .. إنهم بعيدون جدًا .. أبعد من أن يمكننى رؤية وجوههم .

ثم التفتت إليها ، مستطردة فى حيرة أكثر :

ـ كيف رأيتيهم أنت ؟!

أجابتها (مروة) فى توتر شديد :

ـ لقد رأيتهم فى وضوح تام .. (أمير) كان مرهقًا للغاية ، أما أبى ورجل آخر ، فكانت ثيابهما ممزقة ، على نحو يوحى بأنهما قد قاسيا الكثير .

هتفت (نجوى) :

ـ هل رأيت كل هذا ؟!

وعادت تمد بصرها بعيدًا ، محاولة رؤية أية تفاصيل ، إلا أنها لم تلبث أن هزّت رأسها ، فى توتر حائر ، مغمغمة :

ـ عجبًا !

ولم تحاول (مروة) التعقيب على قولها هذا ..

فبالنسبة لها ، كانت واثقة مما رأته ..

حتى وإن كانت تجهل كيف استوضحته ..

ربما هو قلبها بالفعل ..

قلبها ، الذى تجاوز حدود المسافة ، ورأى ما رآه ..

ولكن ما يشغل بالها ، وعقلها ، وكيانها كله الآن ، ليس كيف رأت ما رأت ..

وإنما ما الذى يعنيه ما رأته !

ما يشغل بالها بالفعل ، هو ما الذى حدث هناك ؟!

فى قلب الصحراء ..

نعم .. هذا هو السؤال ..

السؤال الغامض ..

للغاية ..

★ ★ ★

٤ ـ الأعـــداء ..

« ما الذى حدث باالضبط ؟! »

ألقى صاحب الرتبة الكبيرة سؤاله فى حزم ، لم يخل من ذلك التوتر الشديد ، الذى يسرى فى أعماقه ، فهزّ (أنور) رأسه فى حيرة عصبية ، وهو يجيب :

ـ لست أدرى يا سيّدى .. أقسم لك لست أدرى .. لقد كنا جميعًا هناك .. فى القبو .. نستجوب ذلك الشاب ، عندما شعرت وكأن شيئًا ما قد تفجّر ، فى أعمق أعماق عقلى ، ويخيّل إلىّ أننى قد أغلقت عينىّ لحظة ، ثم فتحتهما لأجد نفسىَ هناك ، فى قلب الصحراء ، مع الشاب نفسه ، وسيادة العقيد (فكرى) ..

أدار صاحب الرتبة الكبيرة عينيه إلى (فكرى) ، الذى أشار بيده ، قائلاً فى توتر :

ـ هذا نفس ما شعرت به ، عندما وثبت ، محاولاً منعه من إطلاق النار .

انعقد حاجبا الرجل ، وهو يقول فى عصبية :

ـ الشاب أيضًا لم يشعر سوى بالأمر نفسه .. شىء ما يتفجّر فى عقله ، ثم استعادة الوعى هناك .. فى قلب الصحراء .

لم ينبس (أنور) أو (فكرى) ببنت شفة ، وكأنما لا يجدان جوابًا لما حدث ، أو تفسيرًا منطقيًا له ، فلوّح الرجل بذراعيه ، قائلاً فى حدة :

ـ حتى التنويم المغناطيسى لم يسفر عن شىء .. هذا كل ما تحويه عقولكم الواعية ، وعقولكم الباطنة أيضًا .

قلب (أنور) كفيه فى حيرة شديدة متوترة ، فى حين انعقد حاجبا (فكرى) ، وهو يغمغم فى حذر :

ـ يبدو لى أشبه بانتقال زمكانى مفاجئ .

هتف الرجل فى عصبية :

ـ انتقال ماذا ؟

أجابه (فكرى) فى سرعة :

ـ زمكانى يا سيّدى .. إنه مصطلح يستخدم للانتقال عبر الزمان والمكان فى آن واحد .

حدّق الرجل فيه بضع لحظات ، قبل أن يسأله فى عصبية :

ـ هل كنت شديد الاهتمام بالعلوم فى حداثتك ، على هذا النحو ؟!

أومأ (فكرى) برأسه ، مغمغمًا :

ـ إلى حد ما يا سيّدى .

ظل الرجل يتطلّع إليه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يعود إلى ما خلف مكتبه ، ويقول فى حزم :

ـ اختيارك لهذه المهمة كان مناسبًا بحق إذن .

ابتسم (فكرى) ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ أكثر مما تتصوَّر بكثير يا سيِّدى .

وافقه الرجل بإيماءة من رأسه ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويقول فى بطء :

ـ لقد راجعنا أوراق ذلك الشاب بمنتهى الدقة ، خلال فترة اختفائكم .

غمغم (فكرى) فى هدوء :

ـ أنا واثق من أنها كلها سليمة يا سيِّدى .

أومأ الرجل برأسه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

ثم شبَّك أصابع كفيه أمام وجهه ، مضيفًا فى حزم :

ـ ولكن الأوراق يمكن تزييفها .

اتعقد حاجبا (أنور) ، فى توتر شديد ، فى حين قال (فكرى) فى دهشة ، تحمل لمحة من الاستنكار :

ـ إننا نتحدَّث عن أوراق بالغة التعقيد يا سيِّدى .

أشار الرجل بيده ، مجيبًا فى صرامة :

ـ ونتحدَّث أيضًا عن تكنولوجيا تفوقنا بكثير أيها العقيد .

تراجع (فكرى) ، متمتمًا :

ـ هذا صحيح .

رمقه الرجل بنظرة طويلة ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه مرة أخرى ، ويعقد كفيه خلف ظهره ، طويلاً :

ـ لهذا طلبت إجراء عملية فحص .

ردَّ (فكرى) فى حذر :

ـ عملية فحص ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال فى صرامة أكثر :

ـ نعم .. عملية فحص شاملة ، وبالغة الدقة أيضًا .. فحص طبى ، بكل الوسائل المعروفة والممكنة .. فحص لا يترك خلية واحدة ، فى الجسد كله ، يمكن أن تحمل نواة مجهولة الهوية .

غمغم (أنور) فى توتر :

ـ ولكن ذلك الفتى ابن أحد الدبلوماسيين ، وربما يستخدم والده نفوذه ، و ...

قاطعه الرجل ، بكل صرامة الدنيا :

ـ ما من شخص أو شىء ، يمكن أن يقف أمام الأمن القومى وسلامة الوطن .

ثم شد قامته ، مضيفًا بنفس اللهجة :

ـ لذا ، فقد أمرت بإجراء الفحص الشامل ، فور إتمام الاستعداد لهذا .

تبادل (أنور) و(فكرى) نظرة متوترة ، قبل أن يتساءل الأوّل :

ـ ومتى سيستعدون لهذا ؟!

ـ مع أول ضوء من صباح الغد .

غمغم (فكرى) :

ـ هذا يعنى أن الفتى سيقضى ليلته هنا ، و ...

قاطعه الرجل فى حدة :

ـ ليس الفتى وحده .

ثم انعقد حاجباه مرة أخرى ، وهو يضيف بكل الصرامة :

ـ الفحص سيشمل ثلاثتكم .

ارتفع حاجبا (أنور) فى شدة ، فى حين هتف (فكرى) مستنكرًا :

ـ ثلاثتنا ؟!

أجابه الرجل ، فى صرامة أكثر :

ـ نعم .. ثلاثتكم .. لقد مررتم معًا بتجربة مذهلة ، ولابد من التيقن من أنها لم تترك فيكم أثرًا .

وازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ، وهو يكمل :

ـ أدنى أثر .

وشمل التوتر جسد (أنور) ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ..

أما (فكرى) ، فلم ينطق بكلمة ..

كلمة واحدة ..

* * *

انتصف الليل ، ولم يعد والدها بعد ..

هذا ما جال بخاطر (مروة) ، وهى تتكمش فى فراشها ، وقلبها مازال يخفق فى توتر ، مسترجعه كل لحظة مما رأته ظهر اليوم ..

لم يكن باستطاعتها نسيان المشهد أبدًا ..

الذعر والحيرة على وجه (أمير) ..

وملابس والدها وزميله الممزّقة ..

وحالة التوتر فى المنطقة ..

تُرى ما الذى يمكن أن يجمع بين كل هذا ؟!

لم يكن السؤال قد فارق ذهنها بعد ، عندما فتحت والدتها الباب ، وهمست باسمها ..

لم تكن لديها أدنى رغبة فى التحدُّث إلى أى مخلوق ، فى تلك اللحظة ، لذا فقد ظلت صامتة ، وهى تتطلع إلى والدتها ، التى تقدَّمت نحوها ، وجلست على طرف فراشها ، قائلة :

ـ لا يمكنك النوم مثلى .. أليس كذلك ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فابتسمت أمها ابتسامة حانية هادئة ، وتحسَّست شعرها ، مغمغمة :

ـ لا تسمحى لهذا الشىء بالسيطرة على مشاعرك كلها .

تمتمت (مروة) فى توتر :

ـ أى شىء ؟!

اتسعت ابتسامة أمها ، وحملت المزيد من الحنان ، وهى تميل نحوها ، وتقبلها فى جبينها ، قائلة :

ـ ذلك الشىء ، الذى يشغل عقلك كله ، منذ عودتك من الكلية .

كانت قبلة أمها أشبه بسحر عجيب ، فلم تكد تنطبع على جبينها ، حتى دار رأسها كله ، وراحت فى سبات عميق ..

عميق للغاية ..

وإلى أقصى حد ..

وفى نومها ، رأت نفسها هناك ..

فى تلك البقعة من الصحراء ..

إلى جوار ذلك الجسم الفضائى المستدير ..

ولم تكن وحدها ..

كان والدها إلى جوارها ..

وكذلك أمها ..

كانت تقف وسطهما ، متطلِّعة إلى الأفق البعيد ، حيث راح قرص الشمس يغوص ..

ويغوص ..

ويغوص ..

ثم فجأة ، ظهر هذان المخلوقان ..

مخلوقان شبيهان بالبشر فى تكوينهما ، ولكن لهما رأسان كبيران ، وبشرة حمراء داكنة ، و ....

وانقض المخلوقان على ثلاثتهم فى وحشية عجيبة ..

واستلَّ كل منهما سلاحًا مخيفًا ، من طيات ثيابه ..

وقبل أن تطلق هى صرخة رعب ، أزاحها والدها جانبًا ، وهو يهتف بأمها :

ـ احميها بحياتك ..

واستل سلاحًا مماثلاً ..

وأضيئت المنطقة كلها بضوء الأشعة القاتلة ، و ...

وانتفض جسد (مروة) فى عنف ..

واستيقظت ..

ومع استيقاظها المفاجئ ، فتحت عينيها عن آخرهما ، وحدقت فيما أمامها ..

ثم عاد جسدها كله ينتفض ..

وبمنتهى القوة ..

ومنتهى الرعب ..

فأمامها مباشرة ، فى عالم الحقيقة ، وليس فى عالم الأحلام ، كان يقف المخلوقان ..

نفس المخلوقين ، اللذين رأتهما فى حلمها البشع ..

الوجهان الكبيران ..

والبشرة الحمراء الداكنة ..

والأسلحة القاتلة ، التى ارتفعت نحوها فى صرامة ، و ...

وأضيئت الحجرة بالأشعة القاتلة ..

الحجرة كلها ..

* * *

شبّك رجل الأمن الأكبر رتبة ، أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو غارق فى تفكير عميق خلف مكتبه ، مع تجاوز عقارب الساعة منتصف الليل ، وكل لمحة من ملامحه تشف عن توتر لا محدود ، وانزعاج تجاوز مداه الأقصى ..

ففى أعمق أعماق عقله ، كلنت تشتعل فكرة غريبة ..

غريبة ومخيفة ..

إلى أقصى حد ..

وعلى الرغم من غرابتها واستحالتها ، فقد سيطرت على عقله تمامًا ، واستولت على كيانه كله ، حتى لم تترك فيه ذرة واحدة للهدوء أو التعقل ..

ولقد استغرق فيها رجل الأمن حتى النخاع ..

ثم فجأة ، وبحركة حادة ، اعتدل فى مقعده ، وضغط زر الاتصال بمدير مكتبه ، وهو يقول :

- أريد مشاهدة الفيلم مرة أخرى .

سأله مدير مكتبه فى حذر :

- أى فيلم ؟!

أجابه رجل الأمن فى صرامة :

- الفيلم الذى سجّل واقعة (أنور) ، مع ذلك الفتى .

لم يكن من حق مدير المكتب أن يناقش رئيسه ، لذا فقد قام بكل الإجراءات اللازمة ، وأحضر الفيلم المطلوب ، خلال عشر دقائق فحسب ، وضغط رجل الأمن زر تشغيله ، وراح يطالعه بمنتهى الاهتمام مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وفى كل مرة ، كان يتوقّف طويلاً ، عند تلك اللحظة ، التى أخرج فيها (أنور) مسدسه ..

وصوّبه ..

ثم انقض (فكرى) ..

توقف لمشاهدتها بحركة بطيئة ..

وكمشاهد ثابتة ..

ومتحرّكة ..

ومع المرة الخامسة ، لم يستطع مدير مكتبه تمالك نفسه ، فسأله فى اهتمام شديد :

ـ ما الذى تبحث عنه بالضبط ؟!

أجابه الرجل فى حزم :

ـ الحقيقة .

تساءل مدير مكتبه ، فى حذر بالغ :

ـ أية الحقيقة ؟!

استدار إليه رجل الأمن ، ولوّح بسبّابته فى وجهه ، وهو يقول فى حزم أكثر :

ـ نعم .. هذا هو السؤال الفعلى ..

واعتدل ليميل نحوه ، مضيفًا :

ـ أية حقيقة بالضبط ، تلك التى ينبغى أن نبحث عنها ؟!

بدت الحيرة واضحة ، على وجه مدير مكتبه ، فعاد يتراجع فى مقعده ، ويتابع ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ صحيح أننا نواجه أمرًا عجيبًا ، لا خبرة لنا فى مواجهته ، وربما لا قدرة لنا على مواجهته أيضًا ، ولكنه ، وفى كل الأحوال ، يخضع للقاعدة نفسها ، التى وضعها (آرثر كونان دويل) ، على لسان بطله (شيرلوك هولمز) ، منذ قرن من الزمان تقريبًا .. لو استبعدنا المستحيلات ، فكل ما يتبقى هو الحقيقة ، مهما بلغت غرابتها .

هزّ مدير مكتبه رأسه ، مغمغمًا :

ـ وهذا يضعنا أمام سؤال آخر يا سيّدى .. أين هى الحقيقة ، وأين المستحيلات ؟!

هتف رجل الأمن ، فى حماس مفاجئ :

ـ بالضبط .

ثم التقط ورقة من مفكرته ، وخط عليها اسم أحد رجاله ، وهو يدفعها نحو مدير مكتبه ، قائلاً :

ـ أريد الملف الكامل له .. سأراجعه بنفسى ، ورقة بورقة ..

بدت دهشة بالغة ، على وجه مدير مكتبه ، وهو يلقى نظرة على الاسم ، وقال فى توتر :

ـ ولكنه يا سيِّدى أحد الـ ....

قاطعه رجل الأمن فى حزم :

ـ أريد أيضًا فحص حجرته الاحتياطية فورًا .

قال مدير مكتبه فى توتر أكثر :

ـ إنه هناك حتمًا يا سيِّدى ؛ فوفقًا لأوامرك ، يقوم بعض الزملاء على حراسته ، و ....

قاطعه رجل الأمن فى صرامة :

ـ افحص حجرته الاحتياطية .

ثم تراجع مرة أخرى ، وشبَّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول فى تفكير عميق متوتر :

ـ فمن يدرى ، ما الذى يمكن أن تجدوه هناك ؟! من يدرى ؟!

وكان على حق ..

فمن يدرى ؟!

من ؟!

★ ★ ★

من المذهل أن ما رأته (مروة) كان حقيقة ، وليس خيالاً ..

المخلوقان الفضائيان فى حجرتها كانا حقيقيين ، ويصوبان سلاحيهما القاتلين نحوها ، و ....

وفجأة ، اقتحمت أمها الحجرة ..

اقتحمتها وهى تحمل سلاحًا مماثلاً ، لذلك الذى يحمله مخلوقا الفضاء ، اللذين استدارا نحوها فى شراسة ، فصرخت (مروة) فى رعب :

ـ أمى ..

ومع صرختها ، أطلقت الأم أشعة سلاحها القاتلة ، نحو أحد المخلوقين ، فأضاءت بها الحجرة كلها ، قبل أن ترتطم بصدره ، وتقتلعه من موضعه فى عنف ، وتطيح به عبر الحجرة ، ليصطدم بالجدار بمنتهى القوة ، ثم يسقط أرضًا ..

ولكن المخلوق الآخر أطلق أشعة سلاحه نحو الأم ..

وأطلقت (مـروة) صرخـة أكثر رعبًا ، عندمـا أصـابت الأشـعة جانب أمها ، ,اسقطتها أرضًا ، عند مدخل الحجرة ..

وفى وحشية رهيبة ، استدار المخلوق نحو (مـروة) ، وصـرخ بكلمات غاضبة ، بلغة لا مثيل لها على كوكب الأرض ..

لغة بدت وكأنها لم تسمع مثلها ، فى حياتها كلها ..

ولكنها ، ولسبب ما ، فهمتها ..

وعرفت ما تعنيه ..

أو ما يعنيه ذلك الجزء ، الذى نطقه المخلوق منها ..

« موتى أيتها الـ ..... »

وقبل أن يكمل صرخته ، ظهر والدها فى الحجرة ..

ظهر فجأة ، وكأنما نبت من العدم ، وهو يحمل سـلاحًا مماثلاً ، يصوبه نحو المخلوق ، قائلاً بكل الصرامة :

ـ بل مت أنت أيها المستعمر .

وتراجع المخلوق بحركة حادة ..

واستدار نحو والدها ..

و .....

وانطلقت الأشعة القاتلة ..

وأطاحت بالمخلوق الفضائى ..

بمنتهى العنف ..

واتسـعت عينـا (مـروة) عن آخرهمـا ، وانعقدت الكلمـات فـى حلقها ، فلم تستطع النطق بحرف واحد ..

أما والدها ، فلقد ألقى عليها نظرة ، ليتأكد من أنها بخـير ، قبل أن يندفع نحو أمها ، ويفحصها بسرعة ، وهو يسألها :

ـ هل أصابك ؟

أجابته الأم ، وهى تنهض فى بطء :

ـ أصاب الغلاف الخارجى فحسب ، وهو يلتئم بسرعة كما تعلم .

واتسعت عينا (مروة) أكثر وأكثر ..

ليس للكلمات التى تبادلاها ..

ولكن لتلك اللغة التى استخدماها ، والتـى استخدمها الأب ، فـى حديثه مع ذلك المخلوق الفضائى الأخير ..

اللغة ذات الرنين المكتوم العجيب ..

اللغة الفضائية ..

ولكن الذى أفزعها أكثر وأكثر ، هى أنها فهمتها ..

فهمت كل حرف منها ، قبل حتى أن يتجه والدها نحوها ، ويربّت على كتفها ، قائلاً ، بنفس اللغة العجيبة :

ـ لقد حانت اللحظة .

سألته (مروة) بكلمات مرتجفة :

ـ أية لحظة ؟

ولم تكد الكلمات تتجاوز شفتيها ، حتى سرت فى جسدها كله قشعريرة باردة كالثلج ..

فقد نطقتها باللغة نفسها ..

اللغة ذات الرنين المكتوم العجيب ..

أما والدها ، فقد ابتسم ، وملامحه تتموّج على نحو عجيب ، وهو يجيب :

ـ لحظة العودة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، فى احترام بالغ ، وقد اختفت ملامحه الأرضية ، وحلّت محلّها ملامح كوكبه الأم :

ـ يا سمو الأميرة .

ظهرت من خلفه الأم ، بالملامح الفضائية نفسها ، و ...

واستعاد ذهن (مروة) الحقيقة كلها دفعة واحدة ..

الحقيقة ، التى أخفتها تكنولوجيا شديدة التطوّر والتقدّم ، فى جزء مظلم من أعمق أعماق عقلها ، حتى لا ينكشف أمرها ، حتى لنفسها ..

الحقيقة ، التى قرأها عقل زميلها (أمير) ، بوسيلة ما ، وهو غارق فى النوم ، خلفها تمامًا فى الحافلة ..

وكأميرة الكوكب ، وأمله الوحيد فى استعادة حريته ، بعد الخالق (عزّ وجلّ) ، نهضت (مروة) من فراشها فى رصانة ، ووقفت شامخة ، وهى تقول لحارسيها الشخصيين المخلصين :

ـ هل تم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة ، حتى لا يضار أحد هنا ؟

أومأ الحارس القوى ، الذى لعب دور والدها ، لسنوات طوال برأسه فى احترام ، وهو يقول :

ـ كان كل شىء سينكشف حتمًا ، مع الفحص الطبى الشامل ، الذى قررّوا إخضاعى له .. تركيبنا التشريحى الداخلى المختلف عنهم ، كان سيقودهم إلى الحقيقة ، وكذلك تركيبنا الخلوى ، الذى يحوى طاقة إضافية ، تتيح لنا إمكانيات ، لا يمكن أن تتوافر فى جنسهم بصورة طبيعية .

أضافت الحارسة ، التى لعبت دور أمها على الأرض :

ـ والآن ، سيكشفون اختفائه من حجرته ، على الرغم من الحراسة المحيطة بها ، داخل مبناهم الأمنى ، وسيزعجهم هذا بشدة ؛ لأنه يتجاوز إدراكهم بكثير .

ابتسم الحارس الأب ، متابعًا :

ـ ولكن الخطاب الذى تركته خلفى ، سيوضح لهم الحقيقة كلها ، وسيكشف لهم أن (أمير) مجردُ بشرى مثلهم ، يمتلك عقلاً له إمكانيات خاصة ، أتاحت له التوغل فى ذكرياتك الخفية ، فى لحظة سمحت خلالها الظروف بهذا وعندما يراجعون فيلمهم الأمنى ، سينتبهون إلى أن زميلهم (أنور) كان أسير سيطرة عقلية خارقة ، أمكنها أن تتوغل فى عقل (أمير) ، ومنه إلى عقلى ، لتكشف أننى لست أرضيًا ، وسيدركون أنه ، عندما دفعت تلك السيطرة (أنور) ، إلى نزع سلاحه ، كان ذلك ليطلق النار علىّ أنا ، ولكن وجود (أمير) بينى وبينه ، أوحى بأنه كان يهم بإطلاق النار عليه هو .

رفعت (مروة) رأسها فى اعتزاز ، وهى تقول :

ـ ولهذا هاجمته ، ودفعته مع (أمير) ، عبر الحاجز الزمكانى ، باستخدام تكنولوجيتنا الخاصة ..

أومأ الحارس الأب برأسه ، قائلاً :

ـ كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة ؛ لتحرير (أنور) من السيطرة العقلية الفائقة ، وتأكيد ما تصوّره الجميع .

مع آخر حروف كلماته ، ذات الرنين المكتوم ، التقطت حواسهم شديدة التطوّر والقوة صوت إطارات السيارات ، التى توقّفت تحت منزلهم ، فاعتدلت (مروة) فى شموخ (أميرة) ، وقالت :

ـ كنتما على حق .. حانت لحظة العودة ؛ ليبدأ كوكبنا ثورة التحرير .

اقترب ثلاثتهم من بعضهم ، و(مروة) تنتبه أخيرًا إلى سر حواسها القوية المتطوّرة ، التى طالما أدهشت أصدقائها ، ووقفت بين حارسيها الشخصيين مرفوعة الرأس ، والحارسة الأم تقول :

ـ سيكشفون الآن أن أوراقنا كلها مزوّرة ، ولكن بتكنولوجيا لا يمكنهم كشفها قط .

غمغم الحارس الأب :

وتكنولوجيا جعلتنى ألتحق بأكبر أجهزتهم الأمنية ، دون أن ينكشف أمرى .

تمتمت (مروة) ، وثلاثتهم يلتصقون ببعضهم :

ـ بالتأكيد .

استعرض ذهنها ، فى تلك اللحظة صور زملائها وأصدقائها ، على رأسهم (نجوى) و(أمير) ، فمالت الحارسة الأم ، تهمس فى أذنها ، وكأنها علمت ما يدور فى عقلها :

ـ هل ستفتقدينهم ؟

أجابتها فى حزم :

ـ بالتأكيد .

كان وقع أقدام الرجال يقترب من المنزل ، ثم لم تلبث قبضاتهم أن راحت تضرب بابه فى قوة ، فاستطردت فى خفوت :

ـ ولكن الوطن فوق كل اعتبار .

مع آخر حروف كلماتها ، اقتحم الرجال المكان ..

وهبط ذلك الشعاع غير المرئى ، من مكان ما بالفضاء ..

وفى نفس اللحظة ، التى اقتحم فيها رجل الأمن وفريقه حجرة (مروة) ، كان جسدها وجسدا حارسيها المخلصين يتلاشيان داخلها ، وتنطلق ذراتهما عبر الفضاء ..

عبر الزمان والمكان ..

وبكل ذهول الدنيا ، هتفت أحد الرجال :

ـ رباه ! ما هذا ؟!

حدَّق رجل الأمن فى الحجرة الخالية بضع لحظات ، قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا ، ويقول فى حزم :

ـ الفصل الأخير .

ولم يفهم رجاله ما يعنيه بقوله بالضبط !

ولكن أحدهم لم ينطق بكلمة واحدة ..

على الإطلاق ..

« ولكن لماذا ؟! »

نطقت الأميرة السؤال ، داخل الجسم الفضائى المستدير ، الذى نقلهم الشعاع غير المرئى إليه ، وهى تتطلَّع عبر نافذة سميكة فى

جانبه ، إلى كوكب الأرض ، الذى يبتعد بسرعة مدهشة ، فمالت الحارسة الأم نحوها ، متسائلة فى حنان :

ـ ماذا تعنين بكلمة (لماذا ؟!) ؟!

قالت الأميرة فى خفوت :

ـ لماذا تحدَّث (أمير) عن أمير الفضاء ، وليس أميرة فضائية .

ابتسم الحارس الأب ، قائلاً :

ـ الكلمتان لهما المنطوق نفسه فى لغتنا ، والجنسان متساويان تمامًا فى كوكبنا ، أما هنا ، فمازالوا يتعاملون مع الذكور ، باعتبارهم الأكثر مكانة ؛ لذا فعقله التقط ما تصوَّر معه أن الهدف هو أمير ، وليس أميرة .

غمغمت الأميرة ، وهى تقاوم حزنًا دفينًا فى أعماقها :

ـ ربما كان هذا من صالحنا .

أومأ الحارس الأب ، قائلاً فى حنان :

ـ بالتأكيد .

وفى تلك اللحظة ، انتقل الجسم الفضائى المستدير إلى السرعة فوق الفائقة ..

السرعة التى تكاد تبلغ سرعة الضوء نفسه ..

ولأنه يعرف طريقه جيّدًا ، فقد انطلق نحو مسار دورى خاص ، يختصر المسافة الزمكانية إلى عالمه وكوكبه ..

ذلك الكوكب ، الذى يستعد لثورة عارمة على الطغاة المستعمرين ، فور وصول رمز المقاومة والشرعية ..

الأميرة .

* * *

(تمت بحمد الله)

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب
كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

◄ نافذة على القلب (خواطر) ٥

◄ الانفجار الغامض (دراسة) ١٣

◄ ورحل الصديق (مرثية) ٤٩

◄ آخر الخط (قصة قصيرة) ٥٣

◄ ألغاز .. ألغاز ! (دراسة) ٦١

◄ المفتاح (قصة قصيرة) ١٠٥

◄ حبيبى (دراسة) :

٤- حبك نار ١١٣

قصة العدد :

(الأمير) ١٢٧

◄ عزيزى القارئ (١) ٢١٧

◄ عزيزى القارئ (٢) ٢٤٦

الثمن فى مصر ٤٠٠ قرش
ومايعادله بالدولار الأمريكي
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
مطابع